في التاريخ الأوربي الوسيط

دكتور

جمال الدين فالح الكيلاني

مراجعة

دكتور

يقظان سعدون العامر

مكتبة المصطفى

للدراسات والنشر القاهرة

٢٠١١



نظرة في التاريخ الاوربي وعصوره

اعتاد المؤرخون والمهتمون بالدراسات التاريخية على تقسيم العصور التاريخية الأوربية إلى عصور قديمة وحديثة تتبعها الأحداث المعاصرة. ولكن ما مصداقية هذا التقسيم من الناحية العلمية؟

إن تقسيم التاريخ إلى مجموعة من العصور ما هو في الحقيقة سوى اصطلاح الغرض منه تيسير الدراسة التاريخية؛ وتأسيسا على هذا فإن تقسيم التاريخ لا يعني بحال من الأحوال تجزئة الأحداث التاريخية أو تعميم مفهوم انفصاليتها "لأن تاريخ بني الإنسان يشبه في استمراريته الماء الجاري".. فالأحداث التاريخية لا تقف عند حد وإنما هي متواصلة لا تنقطع ما دام الإنسان على ظهر الأرض وهذا يشبه تماما الماء الجاري المتواصل في النهر.

ويبقى علينا الآن أن نعرف مفهوم العصر التاريخي وماهيته. فالعصر التاريخي هو حقبة زمنية من عدة قرون تتفاوت في عددها وتكون فيها أسس الحياة واحدة أو متشابهة أو على الأقل متقاربة إلى حد ما. فالعصر التاريخي يمثل حضارة ما من إنتاج العقل البشري تكون أحداثها متشابهة وتسير على نمط واحد متقارب. وفي حال تغير الأحداث المتشابهة إلى نمط حضاري آخر عندها ينتهي عصر تاريخي ويبدأ عصر تاريخي آخر جديد. وهذا ينطبق على أحداث التاريخ الأوربي القديم والوسيط والنهضة والحديث والمعاصر. وعلى هذا فإنه من الصعب حقا أن نحدد بداية عصر من العصور التاريخية أو نهايته بسنة معينة لأن التغيرات في الأحداث التاريخية تحدد بشكل تدريجي لا بشكل فجائي ومن هنا يحدث

تداخل بين العصر التاريخي السابق والعصر اللاحق له لأن كل عصر من العصور التاريخية له أذيال وتوابع[1].

وما يحدث للمجتمعات عند انتقالها من عصر إلى آخر يشبه ما يحدث للإنسان عند انتقاله عبر مراحل نموه المتعاقبة. فكما أننا لا نستطيع أن نحدد لحظة بعينها نقول إن الفرد ينتقل فيها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب أو من هذه المرحلة الأخيرة إلى مرحلة الشيخوخة حيث يمر الفرد بتغيرات فيزيولوجية وسيكولوجية معينة؛ فكذلك يعد من المبالغة أن نختار سنة بعينها لنقول أن العصور القديمة توقفت فيها عن السير لتفسح الطريق للعصور الوسطى مثلا[2].

أما العصور الوسطى الأوربية فأطلقها رجال العصر الحديث في أوربا ويقصدون من وراء هذه التسمية تلك المرحلة التاريخية الأوربية التي تمتد من سنة ٤٧٦م تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب إلى غاية القرن الخامس عشر الميلادي. وبالنسبة إلى نهاية العصور الوسطى يعتمد المؤرخون الأوربيون أكثر على سنة ١٤٩٢م الذي يتوافق مع اكتشاف أمريكا من طرف كريستوف كولومبوس ونهاية حروب الاسترداد في أسبانيا ويفضلون هذا التاريخ على سنة ١٤٥٣م التي تتوافق مع سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين والتي تمثل بالنسبة نكبة كبرى للمسيحية.

وتذكر الموسوعة العلمية الرقمية أنكارتا أن مفهوم عصر وسيط Moyen âge استعمل للمرة الأولى من طرف فلافيو بيوندو دو فورلي Flavio Biondo de forli الذي كان سكرتيرا كنسيا في روما في كتابه بالإيطالية Historium ab inclinatione romanorum imperii décades والذي نترجمه بالعربية "حقب تاريخية منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية" ، وكتب هذا الكتاب خلال سنوات ١٤٥٠م ونشر سنة ١٤٨٣م. ففي هذا الكتاب يذكر المؤلف فكرة وضع بين

---

[1] ياغي(إسماعيل) وآخر، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر١٩٨٤، ص ص. ٩-١٠

[2] أباظة(فاروق عثمان)، دراسات في تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية١٩٩٥، ص ص.١٥-٣٤

قوسين في الزمن مرحلة تمثل توقف التقدم وتمثل الركود الثقافي وهذه المرحلة حددها بين التاريخ الكلاسيكي القديم وبدايات النهضة في العصور الأوربية الحديثة. وتم تعميم هذا المفهوم منذ القرن السابع عشر الميلادي. ويقوم المؤرخون غالبا بتقسيم العصور الوسطى نفسها إلى: العصور الوسطى العليا من القرن الخامس إلى العاشر الميلادي وعصر الانتصارات ويتوافق مع تطور نظام الإقطاع والعصور الوسطى الدنيا وهو زمن الكاتدرائيات والعصور المظلمة ونهاية العصور الوسطى[3]

غير أن هناك آراء أخرى بالنسبة إلى تحديد بدايات العصور الوسطى في أوربا فقد اعتقد بعض المؤرخين أن العصور الوسطى تبدأ بجلوس الامبراطور الروماني دقلديانوس على عرش الامبراطورية الرومانية في سنة ٢٨٤م، ومن المعروف أن دقلديانوس كان ملكا من النوع الشرقي القديم مستبدا مطلقا ويضفي على شخصيته مظاهر الألوهية والتقديس واضطهد الديانة المسيحية والمسيحيين أكبر اضطهاد وهدم الكنائس وأحرق الأناجيل ونفى المسيحيين وعمل على استئصالهم من الإمبراطورية الرومانية وظهرت هذه الترعة بشكل واضح في مصر حتى اعتبر عهده أكبر عهد للاضطهاد في تاريخ مصر وأخذ أقباط مصر تاريخ توليه للسلطة بداية للتاريخ القبطي أو "تاريخ الشهداء" واعتبر بعض المؤرخين هذه السنة بداية العصور الوسطى.

كذلك اعتقد بعض المؤرخين أن سنة ٣٢٣م التي تولى فيها الامبراطور قسطنطين الأول حكم الدولة الرومانية هي بداية العصور الوسطى إذ تم في عهده الاعتراف بالدين المسيحي دينا رسميا للدولة الرومانية بعد أن كان دينا للأقلية المضطهدة ونقل عاصمة الدولة الرومانية من روما إلى القسطنيطينية التي أقامها على أنقاض مدينة بيزنطة على شاطئ البوسفور في شرق أوربا وكان ذلك تفريقا بين القسمين الشرقي والغربي للامبراطورية الرومانية وبداية لإنشاء الامبراطورية البيزنطية،وكانت

[3] Encyclopédie Encarta 2002-«Moyen Age »

مغادرته لمدينة روما إيذانا بتحويلها إلى مرتع خصب لسلطان البابوية الذي سينمو تدريجيا في العصور الوسطى ليصبح مسيطرا على مقدرات الحياة في أوربا طوال العصور الوسطى.

وهناك مؤرخون يعتبرون أن سنة ٣٩٥م هي بداية العصور الوسطى باعتبارها السنة التي قسم فيها الامبراطور ثيودوسيوس الدولة الرومانية رسميا إلى شطرين منفصلين: الشطر الشرقي وعاصمته القسطنطينية والغربي وعاصمته روما بين إبنيه. وأخيرا فإن هناك من ينظر إلى سنة ٤١٠م على أنها البداية الفاصلة للعصور الوسطى وذلك نتيجة لقيام القوط الغربيين بقيادة ملكهم ألاريق بدخول شبه الجزيرة الإيطالية واحتلال روما القديمة، وإن كانت قد احتفظت بشبح الامبراطورية إلى سنة ٤٦٧م حين أرسل صولجان الامبراطورية الغربية منها إلى الامبرطورية الشرقية وانتهت بذلك الامبراطورية الغربية في روما لتحل محلها سلطة الكنيسة.

أما بالنسبة لمنطقة الشرق الأدنى فقد شهدت ظهور الإسلام وبدأت دولته عقب هجرة الرسول(ص) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة في منة ٦٢٢م، وبدأت بذلك العصور الوسطى الإسلامية التي شهدت نهضة حضارية زاهرة في المناطق التي امتد إليها الإسلام حتى وصل إلى أوربا حيث مكث المسلمون في الأندلس ثمانية قرون متعاقبة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

وينبغي أن نشير إلى كون العصور الوسطى في أوربا لم تكن دامسة في ظلامها تماما إذ لم تخل من مدنية لها شخصيتها واتجاهاتها وطبيعتها الخاصة وإن كانت لا تعتبر بطبيعة الحال في مرتبة المدنية الرومانية التي سبقتها في العصور القديمة أو مرتبة المدنية في العصور الأوربية الحديثة؛ وذلك لاختلاف مظاهر الحياة في تلك العصور، ومن أبرز خصائص العصور الوسطى: ظاهرة العالمية الممثلة في خضوع أوربا لحكم

إمبراطوريتين كبرتين هما الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البيزنطية. أما الظاهرة الثانية فتمثلت في ظهور البابوية كسلطة دينية وهيبة مسيطرة بينما تمثلت الظاهرة الثالثة في ظهور نظام الإقطاع بجوانبه الإيجابية والسلبية. كما شكلت الحروب الصليبية الظاهرة الرابعة التي كان لها أبلغ الأثر في تغيير الأوضاع الأوربية نتيجة لتعرف الأوربيين على جوانب كثيرة من الحضارة العربية الإسلامية التي احتكوا بها ونبهتهم إلى واقعهم المتردي آنذاك.

ظهور المسيحية وانتشارها

تعد الامبراطورية الرومانية من بين اعظم الوحدات الحضارية والسياسية في العالم ، وقد بلغت عند نهاية القرن الاول ، ومطلع القرن الثاني الميلاديين اقصى اتساع لها ، فشملت معظم القارة الاوربية فضلا عن اعالي العراق وبلاد الشام ومصر والشمال الافريقي ، كما شملت البلقان واسيا الصغرى وامتد نفوذها بعيدا وراء حدودها السياسية حتى وصل الى بلاد فارس والهند الى بلاد النوبة والسودان في افريقيا فضلا عن شرقي الراين واعالي الدانوب في اوربا (١) .

هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ضمت بين ثناياها شعوبا مختلفة المشارب والاجناس ، تلفها حياة فكرية متناقضة هي مزيج من الفلسفة اليونانية والديانات الوثنية ، فحين ولد السيد المسيح (عليه السلام) كان العالم الروماني يشعر بنوع من الجذب الروحي والعاطفي نحو الديانة المسيحية، اذ سئم الرومان عبادة الدولة وعبادة الاباطرة و لم يستطع عامة الناس فهم الفلسفة اليونانية ذات المنطق العقلي الجاف ، يضاف الى ذلك تحلل النظام الاجتماعي القائم على اسس طبقية (الاسياد والعبيد) مما جعل الناس يلتمسون في المسيحية التي تدعو الى البساطة وتطهير النفس مخرجا من الحياة التي يحبونها ، لذا فقد انتشرت المسيحية في الولايات التي تقع في حوض ٤البحر المتوسط ، و لم يكد ينهي القرن الميلادي الاول الا وكانت كل ولاية رومانية تضم جالية مسيحية ، بل ان المسيحيين كونوا جالية كبيرة في روما نفسها في وقت مبكر مما عرضهم لاضطهاد الامبراطور الروماني نيرون (٢) .

وعلى الرغم من ان معلوماتنا عن المسيحية في عصرها الاول وعن كيفية انتشارها بين ربوع الامبراطورية الرومانية تعد ضئيلة ، الا ان ما يتوفر من الروايات التاريخية تفيد ان القديس بولص(*) كان له الفضل الكبير في تشكيل التجمعات المسيحية الاولى ووضع قواعد اللاهوت وما له صلة بذلك في اطار فلسفة المسيحية التي تخص الاخلاق وموضوعات الحياة الاخرى والبعث والحساب كما انه ارسى دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية (١) .

وغني عن البيان القول ان معتنقي المسيحية قد لاقوا من السلطات الرومانية من الاضطهاد ما لايتسع المقام لشرحه هنا ، ومهما يكن من امر فقد استطاعت المسيحية ان تصمد امام كل هذه التحديات حتى اخذ الامبراطور قسطنطين(**) بسياسة الامر الواقع حين اصدر مرسوم ميلان(***) الشهير عام (٣١٣م) معترفا فيه باعتبار الديانة المسيحية كاحدى الديانات التي يسمح باعتناقها داخل الامبراطورية اسوة بالديانات الاخرى (٢)

ان الدولة الرومانية العظيمة قد اقبلت ومنذ مطلع القرن الرابع على تطورات سياسة وادارية ودينية هامة سيكون لها الاثر الفعال في انفصام عرى الوحدة بين شطري العالم الروماني الغربي والشرقي ، وظهور ما يعرف بالدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) تمييزا لها عن الامبراطورية الرومانية القديمة التي سقطت عام (٤٧٦م) على ايدي الجرمان البرابرة.

ففي ميدان التطورات السياسية والادارية ذهب المؤرخون مذاهب شتى في الاجابة على السؤال حول كيفية انقسام الامبراطورية الى شقين غربي وشرقي

(*) القديس بولص : وهو معلم المسيحية الاكبر فكان يهوديا لكن التعاليم المسيحية اصلحت مفاسد المجتمع اليهودي ووضع دعائما لكنسية

الكاثوليكيــة العالميــة وفلــسفة المــسيحية المتعلقــة بــالاخلاق والمــوت والبعــث والحــساب (عبيــد ، الامبراطوريــة الرومانيــة بــين الــدين Rostortzeff , M .op, cit , vol .2 , p.335 .

(**) قــسطنطين : وهــو امبراطــور الامبراطوريــة الرومانيــة الــذي اســتطاع ان يوحدها سنة ٣٢٣م بعــد انتــصاره علــى خــصومه بجانــب المــسيحية واقــام بنقلــة في التــاريخ مــن العــالم القــديم الى عــالم العــصور الوســطى (عبيــد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص٥٤-٥٥) .

(***) مرســوم مــيلان : اصــدره قــسطنطين ســنة ٣١٣م فجعــل مــن المــسيحية ديانــة مرخــصة وســاوى بينــها وبــين الاديــان الاخــرى داخــل الامبراطوريــة الرومانيــة وتعهــد بحمايــة ارواح المــسيحيين وممتلكــاتهم مثــل بقيــة رعايــا الامبراطوريــة (عاشــور ، اوربــا العــصور الوســطى ، ص٥٤-٥٥) .

يوســف ،د. جوزيــف نــسيم ؛ تــاريخ الدولــة البيزنطيــة ، مؤســسة شــباب الجامعة للطباعة والنشر ، الاسكندرية ١٩٨٤،ص١٦ .

المصدر نفسه ، ص٥١ .

اليوســف ، د. عبــد القــادر احمــد ، الإمبراطوريــة البيزنطيــة ، المكتبــة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ،ص٧ .

وقد لخــص بعــض المــؤرخين ابــرز ملامــح بــوادر انقــسام العــالم الرومــاني حيــث يــرجح الــبعض ان اصــلاحات الامبراطــور دقلــديانوس(*) كانــت البداية الحقة لــذلك الانقــسام ، اذ قــسم العــالم الرومــاني الى ادارتــين اولاهمــا شــرقية ومركزهــا اســيا الــصغرى والاخــرى غربيــة ومركزهــا مــيلان في ايطاليا وذلــك تلبيــه لحاجــات الامبراطوريــة الدفاعيــة والاداريــة(١) . الا انــي ارجح اصــلاحات دقلــديانوس تمثــل نهايــة العــصور القديمــة وبدايــة العــصور الوسطى .

لكــن رنــسيمان يــرى ان ســنة (٣٣٠ م) بالــذات هــي البدايــة الحقيقيــة للتاريخ البيزنطــي عنــدما اســتكمل قــسطنطين تــشييد مدينتــه (القــسطنطينية

) التي اطلق عليها روما الجديدة(٢) ، بعد ان اعتنق هذا الامبراطور الديانة المسيحية التي اصبحت الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية وبخاصة في القسم الشرقي الذي اطلق عليه الدولة البيزنطينية او كما يسميه العرب المسلمون بدولة الروم (٣) .

كما يحدد مؤرخون اخرون سنة (٤٧٦م) كبداية لظهور الدولة البيزنطية ونهاية الامبراطورية الرومانية القديمة ، اذ تنازل في هذه السنة الامبراطور رومولوس اوجستولوس اخر اباطرة الغرب عن العرش ، فاصبح الانفصال الظاهري بين شطري الامبراطورية حقيقة واقعة ، وفي هذه السنة ايضا ارسل الجنرال الجرماني ادواكر Odoacer (**) شارات الامبراطورية الرومانية الغربية الى الامبراطور(زينو Zeno)(***) .

---

(١) يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٥-١٦ ؛ اليوسف، الامبراطورية البيزنطية ، ص٧ .

(*) دقلديانوس : وهو جندي فلاح من اقليم دالماشيا ، المطلة على البحر الادرياتي وعين امبراطور للامبراطورية الرومانية تنفيذ لرغبات الفيالق المتولي قيادتها فهو رجل نظامي اراد ضبط شؤون الحكم والادارة (فشر ،هـ،أ.ل ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ج١، ترجمة مصطفى زياد ، السيد الباز العريني ، دار المعارف مصر ، القاهرة ١٩٥٠،ص٢) .

رنسيمان ، ستيفن ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مطبعة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦١، ص١٢٣ .

يوسف ، د.جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ،(الاسكندرية ١٩٨٣)،ص٣٨ .

(**) ادواكر : وهو احد الزعماء المتبربرين الذي استطاع ان يخلع

روميلوس اغسطلوس اخر اباطرة الغرب وان يتولى مكانة حكم ايطاليا وطلب من زينون ان يمنحه رتبة البطرقية وادارة شؤون ايطاليا فاستجاب زينو له واعترف به دواكر حاكما على ايطاليا

Vasilevce ,A: The Byzantine Empire .(madison –1952) ,vol.1.p.107

(***) هو امبراطور الامبراطورية الذي حكم الجزء الشرقي منها سنة ٤٧٦م ،

. Vasiliev , op.cit, Vol.1 , p. 107 .

الجالس على عرش القسطنطينية ، فكان ذلك يمثل نهاية الامبراطورية الغربية من جهة واعلان قيام الامبراطورية الشرقية من جهة اخرى (١) .

وبذلك نلمس ان التطورات السياسية والادارية قد ادت الى تبلور وبروز بيزنطة كعاصمة شرقية للعالم المسيحي بعد افول نجم الامبراطورية الغربية .

موقف الاباطرة من الدين الجديد

ان حكومة الامبراطورية كانت تنظر الى المسيحية على انها من العناصر الهدامة بالنسبة للامبراطورية الرومانية وذلك لاجتماعاتها السرية يوم الاحد لمزاولة شعائرهم الدينية لان بداية المسيحية كانت بشكل ثورة (تنادي بالمبادئ) للقضاء على الحكم الروماني (٢) . لذلك استخدم الاباطرة ضد المسيحيين عمليات الاضطهاد من اجل بقاء الامبراطورية ، وكانت سنة (٢٨٤م) تمثل تاريخا مهما لكثرة المسيحيين الذين ماتوا من عمليات التعذيب في عهد الامبراطور دقلديانوس الذي عمل على اشعال النيران في الكتب المقدسة وسجن قساوستهم وفصلهم من الدوائر الحكومية وهدم كنائسهم (٣) .

لكن بعد تنازل دقلديانوس عن العرش سنة ٣٠٥م جاء من بعده عدد من الاباطرة الذين اضطهدوا المسيحية ، حتى جاء قسطنطين الى عرش

الامبراطورية الرومانية واستخدم سياسة التسامح الديني مع المسيحية وذلك لمعرفته الشخصية بسرعة انتشارها وخوفه على مستقبل الامبراطورية الرومانية (٤) . اذ لم يظهر قسطنطين مسيحيته الا بعد فترة من الزمن ، حين اعلن سنة (٣١٣م) مرسوم ميلان (الذي اجاز فيه رسميا اعتناق المسيحية)(٥) .

يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٧ ، لقد تعرض الدكتور جوزيف الى عرض نظريات اخرى بهذا الخصوص ، ينظر كتابه ، ص١٧ وما بعدها

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ٥٠-٥١ .

عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص٥١-٥٢

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص١٢-١٤ .

الصوري ،وليم ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، نقله الى العربية د. سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر ، (دمشق ١٩٩٠)،ص١٣؛ يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص٤٥ .

و لم يترك قسطنطين دياناته الوثنية بل ظل بلاطه يضم الكهنة الوثنيين والقساوسة المسيحيين وقد قسم وظائف الدولة بينهم(١) . كما كان حامياً للديانة المسيحية حتى سنة (٣٢٥م) ولكن بعد مدة من الزمن تعرضت الكنيسة الى الانقسام (٢) .

انقسام الكنيسة

وعلى صعيد الحياة الدينية نجد ان التيارات المذهبية الجديدة قد ادت الى زيادة الهوة بين شطري العالم الروماني ، حين افترق اتباع المسيحية الى فرقتين مختلفتين ، اذ كان جوهر الخلاف حول طبيعة السيد المسيح ، أي تحديد العلاقة بين المسيح الابن والاله الاب ، لقد اختلف اثنان من

رجال الكنيسة في الاسكندرية وهما اريوس (*) واثناسيوس(**) ، فقال الأول بان المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن ، ومعنى ذلك ان المسيح الابن مخلوق للإله الأب ، وبذلك فهو دونه في المستوى والقدرة (٣) .
((تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)) .
وقال اثناسيوس بان فكرة الثالوث المقدس (***) ، تجعل من الابن مساويا للإله الاب ، اذ هما من اصل واحد بعينه (٤) .
ويبدو أن الاثناسيوسيين قد أدركوا أهمية مكانة المسيح في قوة الدعوة وثباتها . ويرى الاريوسيون أن مذهبهم يقوم على التوحيد والفعل والمنطق ، في حين يتناسب المذهب الاثناسيوسي مع تفكير عامة الناس من البسطاء الذين ينظرون إلى الحياة بعين العاطفة لا بعين العقل (٥) .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص٥٥ .
يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٤٦ .
(*) اريوس : وهو احد قساوسة مصر وراعي كنيسة بوكالبس بالاسكندرية(Visliev ,op.citvol .Vol .1, p.55) (**)اثناسيوس : وهو اسقف الاسكندرية (العريني ، السيد الباز ، الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، (القاهرة ١٩٦٥) ، ص٣٥ .
Cam.Med.Hist.Vol.1.P.199 .
(***) الثالوث المقدس : هي عقيدة المسيح المتمثلة بطبيعة وشخصية السيد المسيح الالهية ،د.عبد الامير محمد امين ، محمد توفيق حسين ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، مطبعة (جامعة بغداد ،١٩٨٠) ،ص٤١ .
توفيق ، عمر كمال ، تاريخ الدولة البيزنطية ، مطبعة الوادي ، (الاسكندرية ،١٩٧٧)،ص٦٠ .
عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص٥٦-٥٧ .

وبناء على الفوارق الحضارية بين الشرق اليوناني ، والغرب اللاتيني فقد سادت الاريوسية في الشرق بينما سادت الاثناسيوسية في الغرب اللاتيني ، وبذلك انقسم العالم الروماني الى معسكرين تسودهما البغضاء الدينية والسياسية (١) .

وبمرور الوقت حاولت كنيسة روما ان تتفوق على باقي الكنائس المسيحية ، بعد ان خلا لها الجو باستقرار الاباطرة في القسطنطينية الجديدة ، عاصمة العالم الروماني الشرقي ، اذ حلت محل روما في ذلك المركز الممتاز ، وبذلك ورث اسقف روما الاباطرة الأقدمين سلطاهم ونفوذهم ، وبات يطمع في زعامة الغرب دينيا ودنيويا ، محاولا قدر الامكان الانفصال والاستقلال عن الكنيسة الشرقية ، التي كانت هي الاخرى ترى احقية وجودها في القسطنطينية عاصمة الاباطرة الشرقيين كراعية لبقية الكنائس المسيحية ، كما رات الكنيسة البيزنطية ان في توجهات كنيسة روما اللاتينية نزعة انفصالية واضحة وخطيرة ، فكان ذلك البداية الحقيقية للخلاف والشقاق المذهبي بين الكنيستين الشرقية والغربية الذي استمر طيلة العصور الوسطى ، وترك اثارة على العلاقة بين الاغريق واللاتين ، اللذين تقابلا وجها لوجه في الحملة الصليبية الاولى (٢) .

وفي عام (١٠٢٤م) تأزم الوضع مجددا عندما اقترح بطريرك القسطنطينية استمرار العلاقات مع روما مقابل اعتراف روما بزعامة القسطنطينية لجميع كنائس الشرق لكن الاخيرة لم تقبل بهذا العرض ، ولم تؤثر على مكانة كنيسة القسطنطينية وزعامتها لكنائس الشرق(٣) .

وكان استيلاء النورمان على جنوب ايطاليا قد اثار مشكلة جديدة فقد تحالف الامبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع مونوماكوس(*) مع البابوية

رستم ،د. اسد ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ط١،ج١، دار المكشوف ، بيروت ، (لبنان ١٩٥٥) ،ص٥٦

يوسف ، العرب والروم واللاتين ،ص١١٤ .

العريني ، السيد الباز ؛ الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١، مطبعة التاليف والترجمة والنشر ، (القاهرة ١٩٦٠)، ص٧٢-٧٣ .

(*) قسطنطين التاسع مونوماكس : وهو امبراطور بيزنطي وصل الحكم سنة ١٠٤٢-١٠٥٥م عند زواجه من زوى سليلة البيت المقدوني (يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص١٩) .

ولكي يحقق امبراطور بيزنطة هذا التحالف عين ارجيروس بن ميلو(*) حاكما على ممتلكاته في ايطاليا لمنع تقدم النورمان(١) .

وقد انزعج كربولاريوس(**) عندما عين ارجيروس حاكما في ايطاليا على املاك بيزنطة لانه وجد ان التحالف مع البابويه يهدد مصالحه وحاول ان يمنع هذا التحالف عندما اصدر تصريحا الى الاسقف انكر فيه تقاليد الكنيسة اللاتينية وهي تناول الخبز الغير مختمر في القربان ، واغلق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية سنة (١٠٥٣م) وكتب كريولاريوس رسالة وفاق الى البابا حيث رد فيها البابا بانه لا يتنازل عن خضوع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما(٢) . وقد امتنع كريولاريوس ان يدخل في المفاوضة مع البابا فاصدر البابا بحقه قرار الحرمان من الكنيسة في سنة (١٠٥٤م) بحضور رجال الدين (٣) .

وهذا ادى الى توتر العلاقات السياسية والدينية بينهما وفي شهر ايار سنة (١٠٥٤م) انفصلت الكنيستان الشرقية والغربية وقد بذلت محاولات عديدة لتوحيد الكنيستين لكنها باءت بالفشل لذلك اصرت كل منهما ان يكون لها الاسبقية على الاخرى وان يسود كل منهما وجهة نظرها وان يكون لكل منهما السيادة الروحية على المشرق والمغرب (٤) .

ان هذا الانشقاق ادى الى فصل الكنيسة الشرقية عن البابوية في روما وهذا ادى الى كره واحتقار الكاثوليك للارثوذكس كما انهم يغارون من البيزنطيين وذلك بسبب مدنيتهم وحضارتهم ولا يثقون بهم ولا يطمئنون اليهم، واصبحوا هم في نظر البيزنطيين هراطقة ملحدين ولا يدينون لهم باي تسامح (٥).

(*) ارجيروس بن ميلو : وهو من اسرة لومباردية تعتنق الديانة والتقاليد اللاتينية و لم يكن من الرعايا المخلصين لبيزنطة لكن قسوة النورمان حملته ان يتخذ جانب من بيزنطة (العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص٧٣) .

(١) العريني ، الدولة البيزنطية ، ص٨١٤-٨١٥ .

(**) كريولاريوس : وهو ميخائيل كريولاريوس بطريك الكنيسة البيزنطية (رنسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب البيزنطية ،ج١، نقله الى العربية السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت -لبنان ،١٩٦٨،ص)

عبيد ، اسحاق تاوضروس ، رومه وبيزنطة ، مطابع دار المعارف ، (مصر ، ١٩٧٠) ،ص٢٥ .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص٩١ .

يوسف ، العرب والروم واللاتين،١١٧-١١٨ .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٧٥ .

وقد غضب الامبراطور من واضعي قرار الحرمان واحرق النسخ المتداولة كما ثار اهالي القسطنطينية ضد قرار الحرمان (١) . وكان هذا القرار بداية الفتنة بين الكنيستين الارثودوكسية في الشرق والكاثوليكية في الغرب وقد حدثت هذه الفتنة نتيجة للفروق الاقتصادية والسياسية والثقافية بين الكنيستيين فمنذ التبشير بالمسيحية كان المجتمع اليوناني وحدة سياسية وثقافية رغم انه يتكون من شعوب مختلفة لها لغاتها

وثقافتها الخاصة لكن هنـاك ثقافـة عامـة توحـد هـذه الـشعوب هـي الثقافـة الرومانية واليونانية وتخضع لحكم امبراطوري واحد(٢) .

لكـن وحـدة الامبراطوريـة الرومانيـة لم تـستمر فقـد انقـسمت الى امبراطوريـة غربيـة وامبراطوريـة شـرقية وتعرضـت الاولى الى هجمـات الجرمان مـا عـدا الاجـزاء الايطاليـة (٣) . فالاختلافـات الثقافيـة لم تظهـر الا بعد الانفصال الـسياسي بـين القـسمين فكانـت صـعوبة التفـاهم بـين اللغـة اللاتينيـة في الغـرب وبـين اللغـة اليونانيـة في الـشرق فالاختلافـات الثقافيـة والـسياسية ادت الى اختلافـات دينيـة وتوجهـت الكنيـسة الـشرقية نحـو الازدهار الثقافي على عكـس الكنيـسة الغربيـة الـتي اصـبحت الاميـة متفـشية فيها وهـذا ادى الى اخـتلاف بـين العقليـتين فالعقليـة البيزنطيـة عقليـة تامليـة بينما العقلية اللاتينية عقلية واقعية (٤) .

وقـد ازداد الخـلاف بـين الكنيـستين عنـد ادخـال تغـيير في العقيـدة القديمـة التي بدات بـروح القـدس مـن الاب فاضـافت الكنيـسة اللاتينيـة الى الـنص " ان روح القـدس مـن الابـن " (٥) . اضـافة الى الانحرافـات الـتي اسـتخدمتها الكنيسة اللاتينية وهو اسـتعمال الخبـز الغـير مختمـر في التنـاول واكـل البـيض واللبن في ايام الجمعـة وحلـق اللحـى واكـل اللحـوم في ايـام الاربعـاء وزواج اخين من اختين والصيام أيـام السبت

عبيد ، روما وبيزنطة ،ص٣٤ .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص١٢٨-١٢٩ .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٦٩ .

د.عبد الامير محمـد امـين ومحمـد توفيـق حـسين ، تـاريخ اوربـا في العـصور الوسطى ،ص٩١ .

عبـد القـادر ، حامـد ، الاسـلام ظهـوره وانتـشاره في العـالم ،ط٢، مكتبـة نهضة مصر ، (القاهرة ١٩٦٤) ،ص٤٤ .

ومشاركة القساوسة في اعمال الحرب والتعميد بغطسة واحدة بدلا من ثلاث فكانت انحرافات هذه الكنيسة تعد افساداً بالنسبة للكنيسة الارثوذوكسية التي لا تقبل شركة التناول من قسيسين متزوجين ولا تحلق اللحى ولا تقبل انبثاق روح القدس من الابن (١) .

وقد اشتد النزاع بين المذهبين ولم يستطع الامبراطور قسطنطين ان يحل الخلافات بينهما(٢). لذلك عقد مجمعا دينيا يدعى بالمجامع المسكونية (*) ويجتمع بدعوة من الامبراطور وتعترف الكنيسة الكاثوليكية بعشرين مجلسا اما الكنيسة الارثوذوكسية فتعقد بسبعة مجالس وقد بحثت في مجالسها(**) الثلاثة موضوع النزاع بين الاريوسية والاثناسيوسية واعلن المجمع بطلان مذهب اريوس وعمل الامبراطور على نفيه(٣). ولم ينجح مجمع نيقيه في حل مشكلة الاريوسية وقد استمرت بالانتشار في اسيا والشام وبين قبائل القوط الجرمانية وقد ناصر الامبراطور قسطنطين في سنواته الاخيرة الاريوسيين لانه نقل عاصمته الى القسطنطينية مما ادى الى ارضاء اهالي الامبراطورية الشرقية وقد افرج عن اريوس واتباعه(٤) .

وفي سنة (٣٣٤م) عقد الامبراطور المجمع الديني الثاني في مدينة صور وتم عزل اثناسيوس والغيت قرارات مجمع نيقيه(٥) . وفي سنة (٣٣٦م) توفي اريوس ثم توفي قسطنطين سنة (٣٣٧م) وعقد مجمع القسطنطينية (٣٨١م) في عهد الامبراطور ثيودوسيوس(***) وذلك بسبب الخلاف بين العقيدتين وقد اعلن المجمع بان مذهب الدولة هو الاثناسيوس وعدم شرعية الاريوسية ومعاقبة اتباعها(٦) .

عبيد ، رومة وبيزنطة ،ص٣٤-٣٦ .

عاشور ، اوربا في العصور الوسطى ، ص٥٦-٥٧ .

(*) المجاميع المسكونية : وهو مجمع ديني كبير وعالمي وتشترك فيه جميع الكنائس المسيحية وبدعوة من الامبراطور يعتقد المسيحيون ان قرارات هذه المجالس يوحي بها من الرب وان طاعة هذه القرارات واجبة واساس أي جانب اطاعة الكتاب المقدس (توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٦٠) .

(**) المجالس الثلاثة الاولى هي القسطنطينية وصور ونيقية (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص٥٨) .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٦٠-٦١ .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص٥٨ .

العريني ، الدولة البيزنطية ،ص٣٢ .

(***) ثيودوسيوس: وهو امبراطور الجزء الشرقي للامبراطورية الرومانية الذي تولى الحكم سنة ٣٩٤ (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص٦٣) .

(٦) توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٦١-٦٢ .

وفي سنة (٤٢٨م) ظهر المذهب الانطاكي(*) واصبح ينسب الى نسطوريوس(**) Nestorius عندما عين بطريكا للقسطنطينية وقد تظاهر سكان القسطنطينية ضد نسطوريوس (١) وقامت هذه المعارضة من قبل كيرلس(***) cyrlls الذي استطاع ان يتغلب عليه بفضل مساعدة الرهبان المصريين ورجال الدين له وصار زعيما للكنيسة الشرقية وقد ادينت النسطورية سنة (٤٣١م) عندما عقد الامبراطور المجمع المسكوني في مدينة افسوس Ephesus (****)(٢) .

وفي سنة (٤٤٩م) عقد الامبراطور مجمعا في مدينة افسوس وتراسه خليفة كيرلس وتلميذه واطلق عليه مجمع اللصوص (*****) عندما ارتبطت كنيسة الاسكندرية بالمونوفيري(******) على الرغم من انها تؤمن بان للمسيح طبيعة واحدة(٣) . وفي سنة (٤٥١م) عقد المجمع

المسكوني الرابع في مدينة خلقدونية لعدم حل مشكلة العقيدة في مجمعي افسوس وقد عقده الامبراطور مارقيان(*******) وصدر عن هذا المجمع قانون الايمان وهو الاعتراف بطبيعتين في المسيح ولا يمكن تجزئتهما وبذلك ربحت كنيسة القسطنطينية في تكوين العقيدة التي تريدها وصارت لكنيسة روما الصدارة(٤) .

وقد وقع تنافس بين الكنيستين الغربية والشرقية وذلك لانتشار المونوفيزية .

(*) المذهب الانطاكي : وهو الذي يعتقد بان المسيح واحد وليس اثنين ولهذا تميز بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح الواحد (رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج١،ص١٥٢) .

(**) نسطوريوس Nestorius : وهو من اتباع مدرسة انطاكية اللاهوتية ،(هسي ،ج.م، العالم البيزنطي ،ط٢،ترجمة ،د.رافت عبد الحميد ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢،ص١٥٦.

vasiliev ,op,Cit . Vol .1 ,P.98 .

(***) كيرلس Cyrll: وهو بطريك الاسكندرية الذي كان يفوق نسطوريوس في المجال السياسي والديني(توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص٦٣) .

(****) افسوس : عاصمة اسيا الصغرى (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج٢،ص٧٦٧) .

(٢) رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج١،ص١٢٣-١٢٤ ،

Ostrogorosky , G.History of The Byzanrin state trans joan Hussey . (oxford , 1956) ,p.54 .

(*****) مجمع اللصوص : الذي اقر مذهب يوتيجا والمذهب المونوفيزي (توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص٦٤)

(******) المونـــوفيزي : وهـــي ميـــول سياســـية انفعاليـــة اتخـــذها المـــسيحيون ضد الحكم البيزنطي ؛

. (Vasiliev .op.cit,op,105)

.Vasiliev ,op,cit,p.99 (3)

(*******) مارقيـــان : وهـــو الامبراطـــور الـــذي خلفـــه ثيودوســـيوس الثـــاني في الحكم (هسي ، العالم البيزنطي ، ص١٠٦) .

.(4) Ostrogorosky , G., op,cit,p.55

اضـــافة الى الخـــلاف بـــين كنـــائس الولايـــات الواقعـــة في الجـــزء الـــشرقي مـــن بيزنطة ، حول المونوفيزية مما ازعج الحكومات البيزنطية (١).

وقـــد حـــاول الامبراطـــور زينـــون ســـنة (٤٨٢م) التوفيـــق بـــين المـــذهب الخلقدوني والمذهب المونوفيزي باســـم قـــانون الاتحـــاد مـــع عـــدم ذكـــر الطبيعـــة او الطبيعتين للسيد المسيح وعـــدم ذكـــر اتحـــاد الطبيعـــتين الـــذي ذكـــر في مجمـــع خلقدونة لكن هذا الاتحـــاد لم يـــنجح فلـــم يعتـــرف بـــه البابـــا كمـــا انـــه قـــام بمقاطعة بطريك كنيـــسة القـــسطنطينية وقـــد اســـقط البطريـــك اســـم البابـــا مـــن ادعية وصلوات الكنيـــسة ممـــا ادى الى الـــشقاق لمـــدة ثـــلاث ســـنوات او اكثـــر بين كنيستي القسطنطينية وروما (٢) .

وعنـــدما تـــولى العـــرش انـــستاسيوس(*) الاول ســـنة (٤٩١-٥١٨) تمـــسك بالارثوذكـــسية (قـــانون الاتحـــاد) واتبـــع جانـــب المونـــوفيزتيين وقـــد حظيـــت سياسته باســـتياء وكـــره مـــن قبـــل البيـــزنطيين وقامـــت ثـــورات واضـــطرابات داخلية وقـــد زاد الظلـــم والتـــذمر مـــن قبـــل المـــوظفين كمـــا لقيـــت سياســـته ترحيبـــا مـــن قبـــل الـــسوريين والمـــصريين وان اتباعـــه سياســـة المونوفيزتيـــة ادى الى اصطناع حـــزب لارضـــاء اصـــحاب الحـــرف وهـــذا ادى الى تـــذمر الـــشعب . (٣)

سقوط الامبراطورية الغربية

لقد ادت الاضطرابات والهجمات التي قامت بها العناصر الجرمانية في الامبراطورية الغربية الى اضعاف سلطتها وانتقالها الى بعض العناصر المتبربرة من قادة الجيش الجرماني مما ادى الى تمزيق اجزائها وسقوطها سنة (٤٧٦م)(٤) .

Vasiliev ,op,cit. Vol .1 ,p.105 .

Ostrogororski ,op,cit,p.59 .

(*) انستاسيوس الاول : اشتهر بكفاءته الادارية واصلاحاته المالية ومن المشاكل التي واجهته مشكلة الايزوريين (Vasilier ,op,cit. Vol. 1 ,p.109) .

Ostrogororski , op.cit,P.P. 61-62 .

(٤) عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص١١٩ .

وقامت العناصر الجرمانية بنهب النفائس الموجودة في البيوت والقصر الامبراطوري والكنائس والمعابد وبذلك خسرت الامبراطورية اراضيها(١).

وخضع الجزء الغربي اسميا لسيادة الاباطرة البيزنطيين الذين سبق وان نقلوا عاصمتهم من روما الى القسطنطينية وظهروا بمظهر الغنى والابهة امام الشعوب المتبربرة(٢) .

اضافة لما اظهروه اباطرة الامبراطورية البيزنطية من مهارة دبلوماسية وسياسية وعسكرية تجاه العناصر الجرمانية وهذا ما جعلهم يغضون النظر عن الامبراطورية الشرقية مما كان له اثر في بقائها(٣).

اهم مشاكل الامبراطورية الشرقية

ان القسم الشرقي من الامبراطورية البيزنطية ظل محافظا على قوته على الرغم مما واجهته من مشاكلات خطيرة وذلك لما اتسم به الاباطرة من

مهـــارة سياســـية وعـــسكرية اذ حـــافظوا علـــى دفاعـــاتهم العـــسكرية والبحريـــة ،فـــضلا عـــن اصـــلاحاتهم الداخليـــة ومنـــها تـــسوير الامبراطوريـــة البيزنطيـــة(٤) .ومع ذلك فـــيمكن ان نقـــف عنـــد اهـــم الجهـــات الـــتي اســـهمت في اضـــعاف وتدهور الامبراطورية البيزنطية ومنها :-

أ- الفرس :-

فقـــد واجهـــت الامبراطوريـــة البيزنطيـــة هجمـــات الفـــرس وكـــان مـــن بـــين المشاكل بينهما هـــو الخـــلاف علـــى الممـــرات الخزريـــة (*) المهمـــة لاســـتراتيجية الدولتين والتي كانت تحـــت ســـيطرة الفـــرس وقـــد اشـــترط ملـــك الفـــرس علـــى الامبراطـــور البيزنطـــي لغـــــــرض المـــصالحة ان يدفـــــع مبلغـــــا مـــــن المـــــال وان يخـــــــرب قلاعهم

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص٩٣ .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص٢٠ .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص٥٠ .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٥٠ .

(*) الممـــرات الخزريـــة : تقـــع وراء حـــدود ليبريـــا (جورجيـــا) وهـــي مـــن المراكـــز الاســـتراتيجية للـــدولتين (اليوســـف ، الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص٦١) .

في دور ازو(*) وهي احـــدى الممـــرات المهمـــة لحمايـــة الممـــرات بـــين الطـــرفين فلم يوافق الامبراطور على تلك الشروط (١) .

واستمر القتال بينهما و لم يتوقف الا بعد وفاة ملك الفرس ومجيء ابنه فجرت مفاوضات للصلح بينهما على اساس ان يدفع الامبراطور الجزية مقابل السلم بينهما وارجاع الحدود الى ما كانت عليه (٢) .

ويبدو انهما لم يتفقا فاحتل الفرس انطاكية بعد ان جددوا الهجوم على الامبراطورية سنة (٥٤٠م) ودخلوا بلاد الشام وقد اخذوا اهلها اسرى الى عاصمة الفرس كما مارسوا فيها عمليات القتل والحرق والسلب والنهب لكن الجيوش البيزنطية حققت النصر على الفرس بعد ان تجمعت في بلاد الرافدين (٣) . هذا اضافة الى الامارات الصقلبية (**) الصغيرة فهي تقف الى جانب اعداء بيزنطة محاولة تثبيت كياناتها (٤) .

ب- ظهور الاسلام

تعد معركة مؤتة سنة (٨هـ-٦٢٩م) اول صدام مسلح بين المسلمين والروم البيزنطيين ، وعلى الرغم من عدم التكافؤ بين قوات الطرفين ، الا انها كانت تمثل الاشارة الواضحة والدعوة الى تحرير بلاد الشام من سيطرة البيزنطيين (٥) .

وما غزوة تبوك التي قادها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في رجب سنة (٩هـ) الا تأكيد على امر تحرير الشام من يد الروم ونشر الاسلام بين ربوعها(٦).

(*) دور ازو : وهي مدينة بلغارية خلال حكم القيصر ميخائيل سنة (١٠٥٤) وقد حطمها الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني سنة ١٠٨١م (الشارتري ، فوشيه ، تاريخ الحملة الى القدس ،ط١،ترجمة زياد جميل العلي ، المركز العربي لتوزيع المطبوعات ، بيروت –لبنان ١٩٩٠،ص٨٩ .)

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٦١-٦٢ .

يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٨٢ .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص١١٨ .

(**) الامارات الصقلبية : تقع الى شمال الغربي من الامبراطورية البيزنطية والتي كانت مستقلة مثل زيتا Zeta وكرواتيا Croatia فان تغير الاوضاع عند الادرباتي وما وراء يؤدي الى تحدي هذه الامارات للسيادة البيزنطية . (هسي ، العالم البيزنطي ، ص١٧٢-١٧٣) .

هسي ، العالم البيزنطي ، ص١٧٢ .

ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك (ت٢١٨هـ) ، السيرة النبوية ، ج٤ ،تحقيق مصطفى السقا واخرين دار احياء التراث العربي ، (بيروت ٢٠٠٠) ،ص٢٠-٢٥ .

الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد (ت٢٠٧هـ) ، كتاب المغازي ،ط٣،ج٢ ، تحقيق د. مارسدن جونسن ،عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٤، ص٧٥٥-٧٥٦ ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ،ج٤،ص١٦٩-١٧٩ ؛ ابن خياط ، خليفة (ت:٢٤٠هـ) ؛ تاريخ خليفة بن خياط ،ج١، تحقيق اكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، (العراق - النجف ١٩٦٧) ،ص٤٩ ؛ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسن (ت٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ،ط١، ج١، دار الاندلس ، (بيروت ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م) ،ص٢٨١ .

وفي العصر الراشدي واصل ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) تنفيذ سياسة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتوجيه انظار المسلمين نحو بلاد الشام بارساله خالد بن سعيد بن العاص على راس جيش الى تيماء(*) قرب حدود الشام ليكون درعا لمن وراءه من المسلمين في حالة تعرض الروم او حلفائهم لهم في اثناء حروب الردة (١) .

ثم واصل ابو بكر (رضي الله عنه) ارسال الجيوش الى بلاد الشام من اجل تحريرها الامر الذي دعا الروم الى حشد قواهم لمواجهة المسلمين ،

فحدثت معركة اجنادين سنة١٣هـ/ ٦٣٤م التي انتصر فيها المسلمون (٢) . هذا الانتصار دعى البيزنطيين الى المبادرة بحشد الكثير من القوات لمواجهة المسلمين والتقى الطرفان في وادي اليرموك ، حيث جرت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون على القوات البيزنطية سنة (١٥هـ / ٦٣٦م)(٣) .

اما المواجهة البحرية بين الطرفين فقد كانت بين الاسطولين العربي والبيزنطي سنة (٣٤هـ/ ٦٥٤م) في معركة ذات الصواري ، والتي انتهت بانتصار المسلمين على الاسطول البيزنطي (٤) .

وكانت المواجهة مع البيزنطيين في العصر الاموي موزعة على جبهتين الاولى الثغور الشامية والثانية الثغور الجزرية (٥) .

وشهد العصر الاموي ، كذلك ، عدة محاولات لفتح القسطنطينية ، ففي سنة (٤٨هـ/٦٦٨م) قاد فضالة بن عبيد الانصاري جيشا كبيرا مخترقا به اسيا

(*) تيماء : بليدة في اطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق (الحموي ، ياقوت ، شهاب الدين ابي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي ، ت٦٢٦هـ)م١،ج٢، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ١٩٩٦،ص٤٧١ .

(١) الطبري ، محمد بن جرير ، (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك،ج١ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ؛ ابو الفداء ، الحافظ ابن كثير الدمشقي ، (ت ٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية ، ط، ج١، مكتبة المعارف بيروت ، ، ص ؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، (ت٨٠٨هـ) ، كتاب العبر ،ج٢، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٧٩، ص٨٢ .

(٢) البلاذري ، ابـو العبـاس احمـد بـن يحيى بـن جـابر ، فتـوح البلـدان ، حققـه وشـرحه عبـد الله انـيس الطبـاع و عمـر انـيس الطبـاع ، مؤسـسة المعـارف ، (بـيروت ١٤٠٧هــ/١٩٨٧م) ،ص١٥٦ ؛ ابـن اعـثم ، ابـن محمـد احمـد (ت٣١٤) ؛ كتـاب الفتـوح ،ط١،ج١،دائـرة المعـارف العثمانية ، حيدر اباد (ب.د) ،ص١٤٥-١٥٠ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ،ص١٨٤ .

(٤) اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص٩٧ .

(٥) ينظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٢٣-وما بعدها

الصغرى حتى بلـغ القـسطنطينية ، لكـن تعـذر عليـه فتحهـا لمناعـة حـصونها الامر الذي دفع الخليفـة معاويـة الى ارسـال حملـة جديـدة بقيـادة ابنـه يزيـد لفتح القسطنطينية الذي عاد عنها بعد ان حاصرها (١) .

وكانـت اخـر محـاولات الامـويين للاسـتيلاء علـى القـسطنطينية في خلافـة سليمان ابن عبـد الملـك سـنة (٩٨هــ/٧١٦م) حيـث اعـد جيـشا لـذلك الامر ، واسـند قيادتـه الى مـسلمة بـن عبـد الملـك ، الـذي حاصـرها بـرا وبحـرا ولكـن هنـاك عـدة عوامـل حالـت دون اسـتيلائه عليهـا ، فـسحب قواته بامر من الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة (٩٩هـ/٧١٧م) (٢) .

وبـسبب انـشغال العباسـيين في توطيـد حكمهـم ، اخـذت الدولـة البيزنطيـة تـستغل الظـروف لـصالحها لتـهاجم الحـصون والثغـور الاسـلامية ، ولهـذا اولى الخلفاء العباسيون هـذه الثغـور أهميـة كـبيرة ، فقـد حـسن الخليفـة ابـو جعفر المنصور هذه الثغـور واعـاد بنائهـا وجعـل لهـا حاكمـا إداريـا مـستقلا وحشد فيها آلاف المقاتلين (٣) .

وقد أرسل الخليفـة المهـدي حملـة عـسكرية بقيـادة الحـسن بـن قحطبـة بـن شـبيب فتوغـل في بـلاد الـروم ودمـر الكـثير مـن المـدن سـنة (١٦٢هـ/٧٧٨م)(٤) .

ثم تواصـــلت حمـــلات العباســـيين ضـــد البيـــزنطينين في عهـــد هـــارون الرشـــيد الذي قـــاد الـــبعض منـــها بنفـــسه (٥) ، وكـــذلك قـــاد الخليفـــة المعتـــصم بـــالله حملة ضد البيـــزنطينين للـــرد علـــى اعتـــداءاهم علـــى المـــسلمين ، فـــدخل مدينـــة عمورية وخربها(٦) .

الطبري ، تاريخ الطبري ، ج٥،ص٢٣٢ .

الطبري ، تاريخ الطبري ،ج٦،ص٥٥٣ .

البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٢٧ .

المصدر نفسه ، ص٢٣١ .

الطبري ، تاريخ الطبري ، ص١٥٢ .

ابـــن خياطـــة ، تـــاريخ ابـــن خيـــاط ،ج٢،ص٧٨٧؛ اليعقـــوبي ، احمـــد بـــن ابي يعقـــوب (ت:٢٩٢هـــــ) تـــاريخ اليعقـــوبي ،ج٣،تحقيـــق محمـــد صـــادق ،بحـــر العلوم ، المكتبة الحيدرية (النجف ١٩٧٣م) ،ص٢١٥ .

واستمرت العلاقـــات الحربيـــة بـــين الـــدولتين حيـــث كانـــت الدولـــة البيزنطيـــة تتحين الفـــرص للإغـــارة علـــى الأراضـــي الإســـلامية ، فيقـــوم المـــسلمون بـــالرد على ذلـــك ، وفي منتـــصف القـــرن الخـــامس الهجـــري هيمنـــت علـــى المـــشرق الإسلامي قوة جديدة ، هـــم الـــسلاجقة(*) الـــذين ســـرعان مـــا مـــدوا نفـــوذهم إلى أسيا الصغرى وبـــداوا بالتوســـع في الـــبلاد الواقعـــة بـــين بحـــيرة وان وارومـيـــة واستولوا علـــى جورجيـــا وبـــلاد الأرمـــن فاثـــار ذلـــك مخـــاوف البيـــزنطينين ، فهـــاجم الإمبراطـــور البيزنطـــي رومـــانوس الاطـــراف الـــشمالية لـــبلاد الـــشام ، الأمر الذي دفع ألب ارسلان(**) الى السيطرة على بلاد الشام(١).

وقــد حقــق الــب ارســلان انتــصارا كــبيرا علــى البيــزنطينين في موقعــة ملاذكــرد(***) في عــام (٤٦٣هـــ/ ١٠٧١م) وســحق الــسلاجقة معظــم الجيش البيزنطي ، ووقع الإمبراطور رومانوس في الاسر (٢) .

ج- البلغار والافار والقوط والنورمان

ووقفــت الإمبراطوريــة ضــد أعــدائها مــن البلغــار(****) والافــار والقــوط(*****) الــذين هاجموهــا فكانــت أحيانــا تنتــصر و أحيانــا تهــزم لكنها بقيت متمــسكة بحقوقهــا القديمــة كمــا تعرضــت الإمبراطوريــة الــشرقية إلى غزوات المغامرين النورمان (******)

(*) الــسلاجقة : مجموعــة مــن القبائــل التركيــة الــتي تــسكن في تركــستان اشتق اسمهــا مــن زعيمهــا ســلجوق بــن دقــاق اعتنقــوا الاســلام في القــرن العاشر المــيلادي وتحمــسوا للمــذهب الــسني وزادت قــوتهم في القــرن الحــادي عــشر واســتولوا علــى المنــاطق المجــاورة وســيطروا علــى خراســان وفي ســنة ١٠٣٧م اعلــن قيــام دولــة الــسلاجقة وبعــد ثــلاث ســنوات حــصل علــى الاعتــراف بدولتــهم مــن الخلافــة العباســية(حلمــي ، الــسلاجقة في التــاريخ والحضارة ،ص٢١-٢٤-٢٥) .

(**) الب ارســلان : وهــو الــسلطان الــسلجوقي الــذي خــرج علــى طاعــة سليمان جغــري بعــد وفــاة عمــه طغــري واعلــن نفــسه ســلطانا للــسلاجقة واقــره امــراء البيــت الــسلجوقي علــى ذلــك (حلمــي ، د. احمــد ، كمــال الــدين ، الــسلاجقة في التــاريخ والحــضارة ، مطبعــة الحيدريــة ،بــيروت ١٩٧٥،ص٧٢) .

ابـــن القلانـــسي : ابي يعلـــي حمـــزة ، ذيـــل تـــاريخ دمـــشق ، مطبعـــة الابـــاء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨، ص

(***) موقعـــة ملاذكـــرد:انتـــصر فيهـــا الـــب ارســـلان علـــى الامبراطـــور البيزنطـــي رومـــانوس دي جـــين وقـــضى علـــى القـــوات البيزنطيـــة في اســـيا الصغرى (ابن الاثير ، عـــز الـــدين بـــن ابي الحـــسن علـــي بـــن ابي الكـــرم محمـــد بن محمد بـــن عبـــد الكـــريم بـــن عبـــد الواحـــد الـــشيباني ، الكامـــل في التـــاريخ ،ج١٠،دار صادر للطباعة والنشر ، (بيروت /١٩٦٦) ، ص٢٣ .

ابن العـــبري : غريفوريـــوس ابي الفـــرج بـــن اهـــرون الطيـــب الملطـــي ، تـــاريخ مختصر الدول ، دار الرائد اللبناني ، بيروت ١٩٨٣، ص٣٢٣ .

(****)البلغـــار : هـــم مـــن الـــصقالبة اســـتطاع الامبراطـــور البيزنطـــي باســـيل الاول القـــضاء علـــى ســـلطتهم وضـــمهم الى امـــلاك بيزنطيـــة بعـــد ان توســـعت الامبراطوريـــة البيزنطيـــة الى ممـــر الادريـــاني (العـــريني ،الـــشرق الاوســـط والحروب الصليبية ،ج١،ص٤٦) .

(*****) الافـــار والقـــوط : وهـــم مـــن القبائـــل الجرمانيـــة الـــتي انحـــدرت مـــن شـــبه جزيـــرة اســـكندناوة الى الـــسهل الاوربي ، وانقـــسموا الى شـــرقيين وغـــربيين ، اذ انتـــشر الـــشرقيون فـــوق ســـهل روســـيا واتجـــه الغربيـــون نحـــو البلقان ، ينظر :(عاشور ؛ اوربا العصور الوسطى ،ص٨٣-٨٤)

(******) النورمـــان : هـــم مـــن الجنـــد المغـــامرين الـــذين بـــدء ظهـــورهم في جنـــوب ايطاليـــا ودخلـــوا في خدمـــة الامـــراء اللومبـــاردين وجـــاء هـــولاء مـــن نورمانـــد بالعـــدم تـــوفر ســـبل الحيـــاة لهـــم (العـــريني ، الـــشرق الاوســـط والحروب الصليبية ،ج١،ص٥٠)

بقيادة روبرت جويـــسكارد(*) الـــذي هـــاجم البلقـــان واحتـــل جنـــوب ايطاليـــا واخذ صقلية من المـــسلمين وجعلـــها دولـــة مـــسيحية وعـــين عليهـــا اخـــاه نائبـــا بابويا بعد ان اخرجوا المسلمين منها(١).

د- البشناق (البجناك) والكومان

تعرضـــت الجبهـــة الـــشمالية مـــن الامبراطوريـــة البيزنطيـــة في البلقـــان الى هجمـــات قبائـــل البـــشناق([**])(البجنـــاك) وهـــم مـــن القبائـــل البربريـــة ذات الاصول التركيـــة عـــرفهم البيزنطيـــون قبـــل القـــرن الحـــادي عـــشر واســـتمرت هجماتهم على بيزنطـــة منـــذ تـــولي الامبراطـــور قـــسطنطين الثـــامن حـــتى نهايـــة القرن الحادي عشر الميلادي(٢) .

وعنـــدما قامـــت الحـــرب الاهليـــة داخـــل الامبراطوريـــة البيزنطيـــة بعـــد خلـــع ميخائيل الـــسابع ســـنة(١٠٧١-١٠٧٨)فـــسح المجـــال للبـــشناق فقـــاموا بنـــهب اراضي بيزنطيـــة في البلقـــان(٣).وقـــد الحقـــت هـــذه القبائـــل خـــسائر كـــبيرة في موارد الامبراطورية عندما اســـتقروا علـــى حـــدودها لانهـــم يتفقـــون مـــع اعـــداء الامبراطوريـــة ويقومـــون بعمليـــات النـــهب والـــسلب(٤) . وقـــد هـــاجم الكومـــان([***])والبـــشناق تراقيـــا واســـتطاع الكـــسيوس([****])كومنيـــوس الاول ان ينجـــو مـــن المـــوت بـــصعوبة وذلـــك عنـــدما حـــصل بينـــهم خـــلاف حـــول الغنـــائم ســـنة (١٠٨٨م) وبعـــدها اســـتطاع الكـــسيوس ان يعقـــد هدنـــة مع اعدائه لكـــن البـــشناق عـــاودوا الهجـــوم علـــى تراقيـــا عنـــدما غـــرر بهـــم صاحب ازمـــير([*****])الكـــسيوس واســـتطاع بدبلوماســـيته اجـــراء اتفاقيـــة مـــع الكومان وتوجيههم ضد حلفائهم(٥)

([*]) روبـــرت جويـــسكارد Robert –Guiscard : تـــابع اقطـــاعي عليـــه اداء الخدمات الاقطاعيـــة لـــسيده البابـــا ، قاســـم ، عبـــدة قاســـم ، ماهيـــة الحـــروب الصليبية ، مطابع السياسة ، الكويت ١٩٩٠ ،ص٤٢ .

(١) فـــشر ، تـــاريخ اوربـــا في العـــصور الوســـطى ، ج١،ص١٣١،١٣٠،٤٤ .

(**) البشناق : (البجناك) وهم القبيلة التركية التي كانت تجوب البلاد من وراء نهر الدانوب فكانوا يجتازون هذا النهر من اجل الاغارة (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص١١١) .

(٢) العريني ، الدولة البيزنطية ،ص٧٩٥ .

قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص٨٤-٨٥ .

هسي : العالم البيزنطي ، ص١٧٢ .

(***) الكومان : قبائل تركية بربرية معروفة باسم القبجاق وجهوا غاراتهم نحو الامبراطورية البيزنطية طوال القرن الحادي عشر (العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص٤٩) .

(****) الكسيوس كومنيوس الاول : وهو مؤسس سلالة كومنين والامبراطور الاول الذي وصل الى العرش سنة (٤٧٤-٥١٢هـ) (١٠٨١-١١١٨م) بحدوث انقلاب بالقسطنطينية (عاقل، نبيه، الامبراطورية البيزنطية ،دمشق،١٩٦٩،ص٢٥٧)

(*) صاحب ازمير : اصبح جاكا صاحب ازمير بعد وفاة سليمان بن قتلمش سنة ١٠٨٦م وضم اليه ولايات ماقز لوميدلكي وبعض جزر بحر ايجة بحيث اسسا ولاية ازمير الكبرى فخاف منه الكسوس كومنينوس الاول فاشار عليه بخلع ارسلان وقتله (رايس ، تامارا تالبوت السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٨،ص٥٠) .

٥- كلاري ، روبرت ، فتح القسطنطينية ، ترجمة د. حسن حبشي ، مطابع دار الكتاب مصر ، القاهرة ،ص١٥٠ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص٨٢-٨٣ .

العلاقات بين شطري المسيحية بعد معركة ملاذكرد (٤٦٤هـ-١٠٧١م)

ان وفـــاة الامبراطـــور البيزنطـــي باســـيل الثـــاني (٩٧٦-١٠٢٥م) تمثـــل ايـــذانا بتدهور احوال الامبراطورية البيزنطيـــة وقـــد تمثـــل ذلـــك في الـــصراع مـــن اجـــل الوصـــول الى الـــسلطة ، اذ نجـــم عـــن ذلـــك ان وصـــل الى العـــرش عـــدد مـــن الاباطرة الـــضعفاء ، كمـــا تـــسلطت بعـــض النـــساء مـــن البيـــت المقـــدوني (*) .وفي تلـــك الحقبـــة ظهـــر الـــسلاجقة والنورمـــان وكـــان لكليهمـــا اطمـــاع في الامبراطورية البيزنطية على الرغم من اختلاف اصول كل منهما(١).

وقد جاء الـــسلاجقة الاتـــراك مـــن بـــراري القرغيـــز في تركـــستان واســـتقروا في بـــلاد مـــا وراء النـــهر ســـنة (٤٢٨هـــــ/١٠٣٨م)واعتنقـــوا الـــدين الاســـلامي وكان اسم زعيمهم طغرل بك(٢) .

وبـــدات تحركـــاتهم نحـــو الجهـــة الـــشرقية للامبراطوريـــة البيزنطيـــة ووصـــلوا الى عاصمة الخلافة العباسية بغداد فدخلوها سنة ٤٤٧هـــ-١٠٥٥م(٣) .

وبعد وفاة طغربـــك ســـنة (٤٥٥هـــــ/ ١٠٦٣م) جـــاء مـــن بعـــده ابـــن اخيـــه الـــب ارســـلان الـــذي اســـتطاع ان يـــصل الى قلـــب ارمينيـــا واســـيا الـــصغرى . (٤)

فـــسيطروا علـــى كابادوكيـــا (قبادوقيـــا) وقيـــصرية(**) وقـــد حـــاول الامبراطـــور البيزنطـــي ارمـــانوس ديوجيـــوس(***) الرابـــع ان يـــصد الخطـــر السلجوقي سنة (٤٦٠هـــ/١٠٦٧م) لكنه لم ينجح في ذلك (٥) .

(*) البيـــت المقـــدوني : يـــضم مجموعـــة مـــن الابـــاطرة الـــذين حكمـــوا الامبراطوريـــة البيزنطيـــة مـــن ســـنة (٩٧٦-١٠٢٥م) ، يوســـف ، تـــاريخ الدولة البيزنطية ،ص١٧٥ .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٧٢-١٧٣ ،

عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٢٥٣ .

هسي ، العالم البيزنطي ، ص١٧٣ .

طرخان ، ابـــراهيم علـــي، الناصـــر صـــلاح الـــدين ، مكتبـــة الانجلـــو المـــصرية ، القاهرة ١٩٥٨، ص١١ .

(**) قبادوقيـــا وقيـــصرية : وهـــي مـــن اقـــاليم بيزنطـــة في اســـيا الـــصغرى (زابـــوروف ، ميخائيـــل ، الـــصليبيون في الـــشرق ، ترجمـــة اليـــاس شـــاهين ، دار التقدم ، موسكو ١٩٨٦،ص٢٩ .

(***) ارمانوس ديـــوجنس : امبراطـــور بيزنطـــي وصـــل الى العـــرش مـــن ســـنة (١٠٦٧-١٠٧١م) حـــصل علـــى بعـــض الانتـــصارات مـــع الـــسلاجقة في معركة (ملاذكرد) لكنه وقـــع اســـيراً وبعـــد اطـــلاق ســـراحه حـــبس وسملـــت عيناه ومات (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص٤٣٢-٤٣٣)

(٥) عاشـــور ،اوربـــا العـــصور الوســـطى ، ص٤٣، عاقـــل ، الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ،ص٢٥٤ ، عطـــا ، زبيـــدة ، التـــرك في العـــصور الوســـطى ، دار الفكر العربي ، (ب،ت) ، ص٤٩ .

وقد كانت ارمينيا وشـــرق اســـيا الـــصغرى قـــد احتلـــها الـــب ارســـلان وعنـــد ذلك قـــام الامبراطـــور رومـــانوس الرابـــع بتهيئـــة جيوشـــه وتزويـــدها بالـــذخيرة لاخراج السلاجقة منها(١).

وبـــالنظر لقلـــة عـــدد الجـــيش الـــسلجوقي قياســـا بالاعـــداد الكـــثيرة للجيـــوش البيزنطيـــة ، حـــاول الـــب ارســـلان ان يكـــسب الوقـــت فارســـل وفـــدا الى الامبراطور البيزنطـــي رومـــانوس الرابـــع لعقـــد هدنـــة بينـــهما ولتجنـــب اللقـــاء بالجيوش البيزنطيـــة فكـــان رد الامبراطـــور البيزنطـــي ســـلبيا وقـــال : " لا هدنـــة الا بالري " ممـــا اغـــضب الـــب ارســـلان لان الامبراطـــور كـــان يريـــد الوصـــول الى داخل دولتهم (٢) .

وفي عـــام (٤٦٣هـــــ) التاســـع مـــن اب (١٠٧١م) اوهـــم الـــب ارســـلان البيـــزنطيين بالانـــسحاب الى وادي ملاذكـــرد(*) بهـــدف جـــر القـــوات البيزنطية الى المكـــان الـــذي يختـــاره لايقـــاع خـــسائر كـــبيرة بـــالبيزنطيين الـــذين

اخذت قواهم بالتزايد على الرغم من قلة قوات الب ارسلان وكانت الدلائل تشير الى ترجيح كفة الامبراطور رومانوس في المعركة(٣) .
الا ان ثبات المسلمين قد قلب موازين المعركة وتم سحق القوات البيزنطية سحقا تاما ووقع الالاف منهم في الاسر بما فيهم الامبراطور البيزنطي اضافة الى عدم اشتراك قسما من قوات الفرنجة وقد دارت بين الطرفين معركة(**) ضارية في مدينة ملاذكرد حيث هزمت فيها قوات الجيش البيزنطي انقسم خلالها الجيش الى جماعات صغيرة وتركوا الامبراطور يواجه السلاجقة لوحده(٤) .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص٤٣٣ .
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص٣٢٢ ؛ ابن الجوزي ، ابي الفرج عبد الرحمن بن علي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ط١،ج٨ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة حيدر اباد ،١٣٥٩هـ ،ص٤٦٣ ؛ الذهبي ، الحافظ شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز ، (ت٧٤٨هـ-١٣٤٧م) ، العبر في خبر من غبر ،ط٢، ج٣، تحقيق فؤاد رشيد ، مطبعة حكومة الكويت ،١٩٨٤ ،ص٢٥٣ ؛ حسنين ، د. عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ط٢،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٠،ص٥٦؛ حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص٣٥ .
(*) ملاذكرد (مانزكيرد) : وملادجرت يطلق عليها عدة تسميات وهي بلدة مشهورة بين خلاط وبلاد الروم وتقع في ارمينيا الكبرى بالقرب من قلعة خرتبرت (البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع ،ج٣، تحقيق محمد النجاوي ،دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٥٥ ، ص١٣١٤)

الفارقي ، احمد بن يوسف بن علي ، تاريخ الفارقي ، تحقيق د. بدوي عبد اللطيف عوض ، بيروت ١٩٧٤ ،ص١٨٩ ؛ رايس ، السلاجقة ، ص٣٨ .

(٤) حبشي ، حسن ، الحرب الصليبية الاولى ، ط٢،دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٨،ص٣٣ .

((وتعتبر هذه الهزيمة نقطة تحول خطيرة في التاريخ البيزنطي ، اذا ترتب عليها ضياع الاجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية وعدم استطاعة الامبراطورية الثبات بعد ذلك في وجه توسع السلاجقة في اسيا الصغرى))(١) . ورجع الامبراطور رومانوس الى القسطنطينية بعد ان وافق السلطان على اطلاق سراحه على ان يدفع الفدية والجزية وفك اسر جميع المسلمين (٢) . وبعد وفاة الب ارسلان استمر التوسع السلجوقي في اسيا الصغرى بقيادة سليمان بن قتلمش (*) واتخذوا من نيقية(**) عاصمة لهم وسموا السلاجقة باسم سلاجقة الروم وذلك تبعا للجهات التي عرفت باسم بلاد الروم (٣) .

واصبحت الامبراطورية البيزنطية التي تعد حامية اوربا المسيحية من التوسع الاسلامي ، عاجزة عن ايقاف الزحف السلجوقي الذي هيمن على معظم اسيا الصغرى (٤) .

ويرى عاشور ان ملاذكرد تعد في فكر بعض المؤرخين ((دعوة للحرب الصليبية في الغرب الاوربي كرد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١م))(٥)-.

ان توسع بيزنطة في الشرق زاد من العداء بينها وبين اليعاقبة والسريان والارمن في القرن العاشر واجبر ملوك الارمن الذين اخذوا اقطاعات جديدة في كابادوكيا وتركوا اقطاعاتهم للامبراطورية البيزنطية على اعتناق المذهب

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص٤٣٣ .

ابـــن الاثـــير ، الكامـــل في التـــاريخ ،ج١٠،ص٤٦٧، ؛ ابـــن العـــبري ، تـــاريخ مختصر الدول ،ص٣٠٣ ؛ الحـــسيني ، صـــدر الـــدين ابـــو الحـــسن علـــي بـــن ابي ناصر(ت٦٢٢هــــــ) ،زبـــدة التـــواريخ في اخبـــار الامـــراء الملـــوك الـــسلجوقية، اخبـــار الدولـــة الـــسلجوقية، نـــشريات محمـــد اقبـــال ، لاهـــور ١٩٣٣،ص٥٠ ؛ الجميلـــي ، د. رشـــيد عبـــد الله ، امـــارة الموصـــل في العـــصر الـــسلجوقي (٤١٩-٥٢١هــ) ،ط١، مطبعة اوفسيت الحديث ،١٩٨٠ ، ص٩٩ .

(*) سليمان بن قـتلمش : كـان والـد سـليمان وهـو قـتلمش بـن اسـرائيل ابن عم السلطان طغربك وقـد انـشق قـتلمش علـى طغربـك في اواخـر ايامـه ونزح مـع بعـض التركمـان الى المنطقـة الجبليـة الواقعـة جنـوبي بحـر قـزوين وتزعم قتلمش الثـورة علـى الـب ارسـلان الـتي الـت اليـه الـسلطنة علـى الـسلاجقة وكـان مـن ابنائـه سـليمان بـن قـتلمش الـذي توسـع بـسلطنة الـسلاجقة دون اهتمـام بـالبيزنطيين (حلمـي ، الـسلاجقة في التـاريخ والحضارة ، ص٣٢-٣٩) .

(**) نيقيه : وهي مدينة قديمـة ازليـة مـن عمـل القـسطنطينية لايعـرف بانيهـا لهـا بحـيرة طولهـا ١٢مـيلا (الحمـيري ، محمـد بـن عبـد المـنعم ، الـروض المعطار في خبر الاقطـار ، تحقيـق احـسان عيـاش ، طبـع في مطـابع هبرلـبرغ ، بيروت ١٩٧٥،ص٥٨٩) .

رايـس ، الـسلاجقة ، ص٤٠-٤١-٤٢؛ د. قحطـان عبـد الـستار الحـديثي ، د. صـلاح عبـد الهـادي ، دراسـات في التـاريخ الـساساني والبيزنطـي ، مطبعة جامعة البصرة ، العراق ،ص٤٠١ .

لـصوري ، تـاريخ الحـروب الـصليبية ،ج١،ص٤٧؛ زايـوروف ، الـصليبيون في الشرق ، ص٣١ .

عاشور ،د. سـعيد عبـد الفتـاح ، تـاريخ العلاقـات بـين الـشرق والغـرب ، دار النهضة العربية للطباعة ، بيروت ١٩٧٢، ص٤٥ .

الارثوذكسي ، و لم يتعرض المسيحيون الى ضغوط خلال القرن الحادي عشر الغرب للكنيسة الشرقية ، وعندما قطعت بيزنطة علاقاتها البابويه مع الغرب حدثت فجوة .بينهما وظل البيزنطيين يكنون الكراهية لروما وذلك لسوء العلاقات بينهما (١) .

لقد ضعفت الامبراطورية البيزنطية نتيجة للهزائم امام السلاجقة مما جعل البابا جريجوري السابع يستغل ظروف بيزنطة ويحاول ان يجعل الكنيسة الارثوذكسية تابعة للكنيسة الكاثوليكية اذ اتبع البابا الطرق الدبلوماسية وبدا بالمحادثات مع ميخائيل السابع من خلال رسالة ارسلها البابا الى الامبراطور البيزنطي لكن دعوته لم تجد قبولا لذلك فكر بشن حملة صليبية بحجة تقديم المساعدة للمسيحيين الارثوذكس وقد لقي مشروع البابا تأييدا من قبل بعض الشرائح في فرنسا وجمع جيشا لهذا المشروع لكنه عدل عنه بسبب الحروب التي بدأت ضد الامبراطورية الالمانية (٢) .

موقف النورمان من الامبراطورية البيزنطية

تعرضت الامبراطورية البيزنطية الى توسع السلاجقة في جهتها الشرقية كما تعرضت جهتها الغربية الى توسع خطير من قبل النورمان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر(٣) .

نتيجة للاوضاع المرتبكة في الامبراطورية البيزنطية ونزاعاتها مع البابا(٤) وفي سنة ١٠٤٢م جاءت مجموعتان كبيرتان من النورمان من نورمندية غرب فرنسا ومن غرب اوربا فتكونت المجموعة الاولى من مغامرين نورمان عملوا في خدمة الامبراطورية البيزنطية كجنود مرتزقة لان الامبراطورية البيزنطية كانت في حاجة اليهم لصد الزحف السلجوقي (٥) .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٧٥ .

زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص٣٠-٣١-٣٢ .

عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص٧٩ .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص١٤٣ .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١،ص١٢٤ .

اما المجموعة الثانية فضمت جماعات من الفرسان الذين انتشروا في اراضي بيزنطية بجزيرة صقلية وجنوب ايطاليا . وكانت تريد العيش هناك وكان زعيمهم وليم هوتفيل(*) وابنه روبرت جويسكارد الذي استطاع تأسيس دولة نورمانية في ايطاليا وصقلية(١) . وبعد وفاة قسطنطين دوكاس زاد نفوذ النورمان في ايطاليا واضطربت احوال بيزنطة سنة (١٠٦٧م) فتوجهت انظار روبرت جويسكارد الى باري Bari عاصمة املاك بيزنطة في ايطاليا (٢) وتمكن روبرت جويسكارد من السيطرة عليها بعد سنة ١٠٧١م بعد حصار دام ثلاث سنوات (٣)
.

وكان سقوط باري على يد روبرت جويسكارد نقطة هامة في تاريخ بيزنطة والنورمنديين معا ((لانه حمل معنى اخراج القوات البيزنطية من ايطاليا وتقليص النفوذ البيزنطي حتى في البحر المتوسط وظهور قوة حربية بحرية جديدة هي قوة النورمنديين))(٤) . وبعد الاطاحة بالامبراطور رومانوس الرابع جلس من بعده على عرش الامبراطورية البيزنطية ميخائيل السابع سنة (١٠٧١م) ، اذ وجد هذا الامبراطور ان هناك جماعات من المرتزقة النورمان في الجيش البيزنطي وهؤلاء يهددون الامبراطورية البيزنطية . من قادة الجماعات المرتزقة هو روسل بايليل(**) Rossel de Bailleul (٥) الذي استغل ضعف الامبراطورية البيزنطية بعد هزيمة ملاذكرت وتمكن من تاسيس دولة في الاناضول .

وفي سنة ١٠٧٣م اعلن رسل تمرده حيث قام بقيادة ثلاثة الاف من جماعته للاستيلاء على الجهات المحيطة بقونية وانقره (٦) .

(*) وليم هوتفيل : امير النورمان في ابوليا سنة ١٠٤٢ واتخذ ملقي Melfi مركزا له (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص٣٢٨) .

عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص٧٩ .

حبشي ، الحرب الصليبية الاولى ، ص٤٣ .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص١٤٣ ، هسي ، العالم البيزنطي ،ص١٧٤ .

حبشي ، الحرب الصليبية الاولى ، ص٤٧ .

(*) روسل بايليل : هو قائد للجماعات المرتزقة من النورمان الذي كان في خدمة الامبراطورية البيزنطية لكنه تمرد عليها ، (العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١، ص٦٥-٦٦) .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١،ص١٠٢-١٠٣ .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص٦٥-٦٦ .

وارسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع حملة بقيادة الكسيوس للقضاء على التمرد وكان الكسيوس ضابطا في منطقة الحدود البيزنطية ، وعلى الرغم من صغر سنة الا انه كانت خبرة بطريقة القضاء على خطر النورمان اذ استطاع اغراء احد السلاجقة ويدعى تتش في اسيا الصغرى بعد اجراء المحالفات معهم حيث تم القاء القبض على رسل وارساله الى القسطنطينية (١) .

وقد حاول ميخائيل السابع الابتعاد عن هجمات النورمان في ايطاليا عن طريق المصاهرة بزواج ابنه من ابنة روبرت جويسكارد وفي هذه الظروف تم عزل ميخائيل السابع عن منصبه سنة (١٠٧٨م) واصبح

الطريق مفتوحا امام النورمان لغزو املاك الامبراطورية البيزنطية (٢) . وكان روبرت جويسكارد قد غضب عند فسخ خطوبة ابنته فعبر بحر الادرياتيك لغزو املاك الامبراطورية البيزنطية(٣) وتقول آن كومنين(٤) : ((ان جيش روبرت المكون من اعداد كبيرة من الفرسان والمشاة كانوا قد ضربوا خيامهم في اراضي الامبراطورية في شهر حزيران سنة ١٠٨١م)) .

ولما غزا روبرت اراضي بيزنطية سنة (١٠٨١م) بايطاليا بارك البابا جريجوري السابع هذه الحرب ودعى رجال الدين والفرسان في جنوب ايطاليا الى الاشتراك في حملة روبرت جويسكارد (٥) . ولم يكتفي النورمان بالسيطرة على جنوب ايطاليا اذ اخذوا يتوسعون على حساب الامبراطورية البيزنطية فقد سيروا جيوشهم من جنوب ايطاليا الى الشاطئ الغربي لشبه جزيرة البلقان ، وكان الزحف النورماني متزامنا مع تنصيب الامبراطور الكسيوس كومنين على عرش بيزنطة سنة (١٠٨١م) فادى ذلك الى نشوء علاقة جديدة بين الامبراطور البيزنطي والامير النورماني كان محورها الخلاف حول امارة انطاكية .

Ann comnena , The Alexiad Edited and translated by Elizabeth A Dawes (Landon kegan paul 1928) , Vol.1.p.32-33 .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص٨٧٨-٨٧٩ .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص١٠٧ .

Alexiad ,op,cit.Vol.5p.p.135-137 .

زابوروف ، الصليبيون في الشرق ،ص٣٢ .

وتوجهت قوات روبرت جويسكارد الى القسطنطينية بعد ان احتلت دور ازو سنة ٤٧٥هـ-١٠٨٢م وهربت قوات الكسيوس امام الزحف النورمندي واستطاع بوهيمند ابن روبرت جويسكارد ان يحتل مراكز مهمة في ايبروس(*) ومقدونيا(**) بعد ان رجع والده الى ايطاليا

نتيجة لحدوث اضطرابات فيها وترك قواته بيد ابنه(١) . وبعد الهزائم التي مني بها الكسيوس الاول استطاع ان يحقق نصرا على بوهيمند وذلك بسبب التفرقة بين الاعداء الذي استخدمها الكسيوس الاول واستنجاده بزعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش له بسبعة الاف مقاتل عندما كانت الامبراطورية البيزنطية قريبة من السقوط وبعدها رجع بوهيمند سنة ٤٧٦هـ-١٠٨٣م الى ايطاليا لتجديد قواته (٢) .

وكان على الكسيوس ان يتحالف مع البنادقة كي يعينونه باساطيلهم الضخمة ازاء حصولهم على الامتيازات التجارية في القسطنطينية كما ارسل الكسيوس رسلا الى هنري الرابع يطلب منه غزو لمبارديا لكي يشغل روبرت جويسكارد عن الامبراطورية البيزنطة (٣). ثم رجع روبرت وابنه بوهيمند للحرب مع الامبرطور البيزنطي انتقاما للتحالف البيزنطي مع البنادقة واستمرت الحرب بين الطرفين لمدة طويلة على سواحل ايبروس بمشاركة بوهيمند في الغزو الصليبي وذلك طمعا في تأسيس اماره صليبية في المشرق وبعد الموت المفاجئ لروبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥ م ،زال خطر النورمان لفترة مؤقتة (٤) . حيث تبددت احلام بوهيمند واصبح مشغولا في حرب الوراثة في جنوب ايطاليا .

(*) ايبروس : وهو اقليم يقع على البحر الادرباتيكي وعاصمة دور ازو (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١ ،ص٢٠٠) .

(**) مقدونيا : هو اسم لمصر باليونانية القديمة ولها سور طويل من جهة الشرق (ابن الفقيه ، ابو بكر احمد بن ابراهيم الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، طبعة في مدينة ليدن بمطابع برلين ،١٣٠٢هـ ، ص١١٦) .

(١) لانجر ، وليام ، موسوعة تاريخ العالم ، ج٣،ترجمة محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ١٩٥٩،ص٦٨٦ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص٨١-٨٢ .

Vasiliev. AA.History of the Bayzantine Empire , (madison ,and milwa ukee-1964)Vol,11.p.381

(٣) قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص٨٩-٩٠ .

(٤) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١، ص١٣٧-١٣٨؛ عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١، ص١٢٥

ظهور الاسلام

تعـــد معركـــة مؤتـــة ســـنة (٨هــــــ-   م) اول صـــدام مـــسلح بـــين المسلمين والروم البيـــزنطنيين ، وعلـــى الـــرغم مـــن عـــدم التكـــافئ بـــين قـــوات الطرفين ، الا انهـــا كانـــت تمثـــل الاشـــارة الواضـــحة والـــدعوة الى تحريـــر بـــلاد الشام من سيطرة البيزنطيين (١) .

وفي العصر الراشدي وما غـــزوة تبـــوك الـــتي قادهـــا الرســـول (صـــلى الله عليـــه وسلم) في رجب سنة (٩هــــــ) الا تاكيـــدا علـــى امـــر تحريـــر الـــشام مـــن يـــد الروم ونشر الاسلام بين ربوعها (٢) .

واصل ابي بكر الـــصديق (رضـــي الله عنـــه) تنفيـــذ سياســـة الرســـول (صـــلى الله عليه وسلم) بتوجيه انظار المـــسلمين نحـــو بـــلاد الـــشام بارســـاله خالـــد بـــن سعيد بن العـــاص علـــى راس جـــيش الى تيمـــاء قـــرب حـــدود الـــشام ليكـــون درعا لمـــن وراءه مـــن المـــسلمين في حالـــة تعـــرض الـــروم او حلفـــائهم لهـــم في اثناء حروب الردة (٣) .

ثم قام ابو بكـــر بارســـال الجيـــوش الى بـــلاد الـــشام مـــن اجـــل تحريرهـــا لامـــر الذي دعـــى بـــالروم الى حـــشد قـــواتهم لمواجهـــة المـــسلمين ، فحـــدثت معركـــة اجنـــادين ســـنة   ١٣هــــــ/   م الـــتي انتـــصر فيهـــا المـــسلمين (٤) .

هـــذا الانتـــصار دعـــى البيـــزنطيين الى المبـــادرة بحـــشد الكـــثير مـــن القـــوات لمواجهـــة المـــسلمين والتقـــى الطرفـــان في وادي اليرمـــوك ، حيـــث جـــرت معركة حاسمة انتـــصر فيهـــا المـــسلمين علـــى القـــوات البيزنطيـــة ســـنة (١٥هــــــ /   م)(٥) .

ابن هشام ، ابو محمد عبد الملـــك ، ســـيرة الـــنبي محمـــد (صـــلى الله عليـــه وســـلم) ، الواقدي ، محمد بـــن عمـــر بـــن واقـــد (ت٢٠٧هــــــ) ، كتـــاب المغـــازي ،

تحقيق د. مارسدن جونسن ، ط٣، بيروت ١٩٨٤ ،ج٢،ص٧٥٥-٧٥٦ .

ابن هشام ، عبد الملك (ت٢٨٠هـ) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقاء واخرون ، بيروت ٢٠٠٠ ،ج٤،ص١٦٩-١٧٩ ؛ المسعودي ، علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٢،ص٢٨١ .

الطبري ، تاريخ ،ج ، ص، ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج،ص؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ) ؛ كتاب العبر ، بيروت ،د.ت،ج٢،ص٨٢ .

البلاذري ، ابن العباس احمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، حققه وشرحه عبد الله انيس الطباع و عمر انيس الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ،ص١٥٦ ؛ ابن اعثم ، ابن محمد احمد (ت٣١٤) ؛ كتاب الفتوح باعتناء ، د. عبد المعيد خان ،ط١، حيدر اباد ،ج١،ص١٤٥-١٥٠ .

البلاذري ، فتوح البلدان ،ص١٨٤ .

اما المواجهة البحرية بين الطرفين فقد كانت بين الاسطولين العربي والبيزنطي سنة (٣٤هـ/ م) في معركة ذات الصواري ، والتي انتهت بانتصار المسلمين على الاسطول البيزنطي (١) .

وكانت المواجهة مع البيزنطيين في العصر الاموي موزعة على جبهتين الاولى الثغور الشامية والثانية الثغور الجزرية (٢) .

وشهد العصر الاموي ، كذلك ، عدة محاولات لفتح القسطنطينية ، ففي سنة (٤٨هـ/ م) قاد فضالة بن عبيد الانصاري جيشا كبيرا مخترقا به اسيا الصغرى حتى بلغ القسطنطينية ، لكن تعذر عليه فتحها لمناعة حصونها الامر الذي دفع الخليفة معاوية الى ارسال حملة جديدة

بقيادة ابنه يزيد لفـــتح القـــسطنطينية الـــذي عـــاد عنـــها بعـــد ان حاصـــرها (٣)

.

وكانـــت اخـــر محـــاولات الامـــويين للاســـتيلاء علـــى القـــسطنطينية في خلافـــة سليمان ابن عبـــد الملـــك ســـنة (٩٨هـــــ/ م) حيـــث اعـــد جيـــشا لـــذلك الامر ، واســـند قيادتـــه الى مـــسلمة بـــن عبـــد الملـــك ، الـــذي حاصـــرها بـــرا وبحرا ولكن هناك عـــدة عوامـــل حالـــة دون اســـتيلائه عليهـــا ، فـــسحب قواتـــه

بـــامر مـــن الخليفـــة عمـــر بـــن عبـــد العزيـــز ســـنة (٩٩هـــــــ/ م) (٤) .

□وبسبب انشغال العباسيين في توطيد حكمهم ، اخذت الدولة البيزنطية تستغل الظروف لصالحها لنهاهم الحصون والثغور الاسلامية ، ولهذا اولى الخلفاء العباسين هذه الثغور اهمية كبيرة ، فقد حسن الخليفة ابو جعفر المنصور هذه الثغور واعاد بنائها وجعل لها حاكما اداريا مستقلا وحشد فيها الاف المقاتلين (٥) .

١-

٢- ينظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٢٣-وما بعدها .

٣-

الطبري ، تاريخ ،ج٦،ص٥٥٣؛ ابن الاثير ، ج ، ص .

لبلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٢٧ .

وقد ارسل الخليفة المهدي حملة عسكرية بقيادة الحسن بن قحطبة بن تسبيب فتوغل في بلاد الروم ودمر الكثير من المدن سنة (١٦٢هـ/ م) (١) .

تواصلت حملات العباسيين ضد البيزنطينين في عهد هارون الرشيد الذي قاد البعض منها بنفسه (٢) .

وكذلك قاد الخليفة المعتصم حملة ضد البيزنطينين للرد على اعتداءاتهم على المسلمين ، فدخل مدينة عمورية وخربها(٣) .

واستمرت العلاقات الحربية بين الدولتين حيث كانت الدولة البيزنطية تتحين الفرص للاغارة على الاراضي الاسلامية ، فيقوم المسلمين بالرد علة ذلك ، وفي منتصف القرن الخامس الهجري هيمنت على المشرق الاسلامي قوة جديدة ، هم السلاجقة الذين سرعان ما مدوا نفوذهم الى اسيا الصغرى وبداوا بالتوسع في البلاد الواقعة بين بحيرة وان وارومية واستيلائهم على جورجيا وبلاد الارمن فاثار ذلك مخاوف البيزنطينين ،

فهـــاجم الامبراطـــور البيزنطـــي رومـــانوس الاطـــراف الـــشمالية لـــبلاد الـــشام ، الامر الذي دفع الب ارسلان الى السيطرة على بلاد الشام(٤).

وقـــد حقـــق الـــب ارســـلان انتـــصارا كـــبيرا علـــى البيـــزنطينين في موقعـــة ملاذكـــرد في عـــام (٤٦٣هـــــ/ ١٠٧١م) وســـحق الـــسلاجقة معظـــم الجـــيش البيزنطي ، ووقع الامبراطور رومانوس في الاسر (٥) .

البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٣١ .

ابن الاثير ،

ابن القلانسي ،

ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص .

(*) الب ارسلان : معناه الاسد الشجاع وهو لقب تركي اتخذ الب ارسلان اسم محمد عند اعتناقه الاسلام بدل من اسرائيل الذي كان يعرف به واضفى عليه الخليفة القائم العباسي لقب غر الدين (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص٤٣١) .

معركة ملاذكرد والاستغاثة بالغرب

بعد الهزيمة التي الحقها السلاجقة بالامبراطورية البيزنطية في معركة ملاذكرد سنة (٤٦٤هـ-١٠٧١م) فقدت بيزنطة سلطانها في معظم اسيا الصغرى عندما وصلت ممتلكات السلاجقة الى بحر مرمرة (١) .

ان النتائج التي ترتبت على هذه المعركة وما رافقها من ظروف صعبة احاطت بالامبراطورية البيزنطية ، كل ذلك قد اجبر الامبراطور البيزنطي ميخائيل(*) السابع ان يطلب العون من البابا جريجوري(**) السابع سنة (١٠٧٣م) لحماية بيزنطة من الاخطار التي تحيط بها (٢) .

وفي سنة (١٠٧٤م) جهز البابا جريجوري جيشا لغرض ارسال حملة تسترجع بها اسيا الصغرى من المسلمين الى بيزنطة بعد سماعة للطلب المتكرر من قبل الامبراطور ميخائيل (٣) . وسعى البابا الى اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية لكن الظروف التي أحاطت بالبابا جريجوري وهي مشكلة الخلافات بينه وبين روبرت (***) جويسكارد(٤) ، ثم تلا ذلك مشكلة التقليد العلماني (****) مما اعاقه عن تحقيق خطته (٥) .

---

(١) باركر : ارنست ، الحروب الصليبية ،ط٢،دار النهضة العربية ، (بيروت ١٩٦٧) ،ص١٩.

(*) ميخائيل السابع : امبراطور بيزنطي اغتصب العرش (١٠٧١-١٠٧٨م) بعد اسر رومانوس بيد السلاجقة ، (عبيد ، روما وبيزنطة ،ص٤٨) .

(**) البابا جريجوري السابع : الذي وصل الى العرش سنة(١٠٧٣م) واصدر قراره سنة ١٠٧٥ العنف ضد التقليد العلماني المشار اليه مما ازعج هنري الرابع وبقية ملوك الغرب (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص٣٥٣) .

(٢) العريني ، الدولة البيزنطية ،ص٨٧٩ .

(٣) العريني ، الدولة البيزنطية ،ص٨٧٩ .

(***) روبرت جويسكارد : وهو قائد نورماني جاء من نورمنديا في غرب فرنسا الى جنوب ايطاليا وحاول اقامة دولة نورماندية على حساب بيزنطة والسلاجقة بعد ان زحفت قواته الى القسطنطينية ثم رجع الى ايطاليا لظروف تستدعي ذلك (عاشور ، الحركة الصليبية ،ص١٢٣-١٢٤) .

(٤) رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج٢،ص١١٤-١١٥ .

(****) التقليد العلماني : لا يجوز للحاكم العلماني (السياسي) ان يقلد رجال الدين المناصب الدينية فمن يعمل ذلك يحرم من الكنيسة وقد اعلن هذا القرار البابا جريجوري السابع سنة ١٠٧٥ (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص٣٤٨-٣٥٣) .

(٥) عطا ، الترك في العصور الوسطى ،ص٦٩ .

وبعد تدهور احوال الامبراطورية البيزنطية فتح المجال للطامعين في الحكم للقيام بثورة ومنهم نقفور(*) (Nicephorus Botaneiates) سنة (١٠٧٨م) الذي نصب نفسه امبراطورا باسم نقفور الثالث بعد تعاونه مع السلاجقة (١) ، ولكن الجيش تمكن من القيام بانقلاب ضده ، ونصب الكسيوس كومونين امبراطوراً بدلا منه (٢) . ((الذي يعتبر من اكثر الاباطرة كفاءة عسكرية وادارية تمكن بسياسته من المحافظة على وحدة الامبراطورية من الفوضى وعالج المشاكل الخارجية والداخلية المعقدة واتقن مخاطر البعض الاخر))(٣) .

نجح الكسيوس في الوصول الى العرش بعد سلسلة من الفتن والاضطرابات والمؤامرات الداخلية وساعد على ذلك خدماته الحربية التي قدمها للدولة اثناء مشاكلها وكوارثها وكان عارفا باحوال البلاد الداخلية والخارجية فسعى الى بناء ما دمرته الاحداث (٤) .
واثناء تسلمه منصبه واجهته مشكلة السلاجقة لذا توجه نحو البابا اوربان(**) الثاني الذي تسلم منصبه سنة (١٠٧٧م)(٥) .وذلك لحاجة الامبراطورية البيزنطية الى جيش من المرتزقة يكونون تحت امرة الامبراطور وسيطرته ، وقد اعرب البابا اوربان الثاني عن خشيته من قوة السلاجقة وقسوتهم على الكنائس الشرقية فاراد تعاون جميع ملوك اوربا وامرائهم في حملة صليبية لحماية القبر المقدس وحجاج بيت المقدس (٦) . كما يزعمون .

(*) نقفور (Nicepharus Botaneiates) وهو احد قادة الامبراطور كان يحكم اقليم عمورية فريجيا (عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١،ص٩١) .

عاشور ، د. سعيد عبد الفتاح ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص٤٧ .

,pirinted Setton , Kenneth ,M,ahistory of the cruades inunited sates of (America ,1969) ,p.Vol .2 , p.126 .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص١٤٤ .

يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢٠٧ .

(***) اوربان الثاني : فرنسي الاصل كان راهبا في مدينة كلوني بفرنسا (المطوي ، محمد العروسي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، مؤسسة جواهر للطباعة ، (بيروت ١٩٨٢) ،ص٤٦) .

(5) Setton , op,cit,vol,II,p.126 .

(6) Setton , op,cit,II,p.126 .

وذكر البعض ان اوربان الثاني عقد اول اجتماع ديني في بياكتر(*) سنة ١٠٩٥م(١) .

وقد حضر هذا المجمع وفدا ارسله الامبراطور البيزنطي الكسيوس حيث بينوا خطر السلاجقة على المسيحيين جميعا، رغم ضعف دولتهم ويجب تقديم المساعدة كي يستطيع الكسيوس القضاء عليهم(٢) بارسال جيوش يتولى توجيهها لقتال السلاجقة فلبى البابا طلبهم (٣) ويمكن القول ان الوفد قد بالغ في طلبه ووصفه وضع احوال الامبراطورية الشرقية والغربية من اجل الحصول على مساعدة الامراء والاساقفة(٤) . ويبدو ان ذلك لم يكن متطابقا مع طلب الكسيوس كومنين وليس هناك شاهد عيان يتحدث عن طلب الامبراطور في الصيغة المبالغ بها في طلب العون من البابا غير الذين كتبوا في وقت متاخر(٥) . ثم رجع البابا اوربان الثاني من ايطاليا الى فرنسا فزار مدينة بوي(**) للدعوة الى مؤتمر كلير مونت(***) .

ثم واصل مسيره الى مدينة سان جيل (****) ولم تكن هناك اشارة للحرب الصليبية . وبعدها توجه نحو جنوب فرنسا الى دير كلوني(*****) .(٦).

(*) بياكتر : مدينة تقع في شمال ايطاليا وقد عقد فيها مجمع ديني برئاسة البابا سنة ١٠٠م (عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١،ص١٣١) .

(١) مونرو : مكسيوس مظلوم ، من تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب ، م١،ترجمة السيد كيريو كيريو ، مكسيموس مظلوم ، طبع باورشليم ١٨٦٥،ص٩ ؛ العريني ، الشرق الاوسط

والحـــروب الـــصليبية ، ج١،ص١٤٩ ؛ عاشـــور ، الحركـــة الـــصبيبة ، ج١،ص١٣١ .

عطا ، الترك في العصور الوسطى ، ص٧٠ .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١،ص١٤٩-١٥٠ .

عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٨٢ .

المصدر نفسه ، ص٨٢ .

(**)بـوي Puy : مدينـة فرنـسية بـاعلى نهـر الالـوار (المطـوي ، الحـروب الصبيبة في المشرق والمغرب ،ص٤٧) .

(***) كلير مونت : وهـي مدينـة تقـع جنـوب فرنـسا اجتمـع فيهـا البابـا بحشد من رجال الـدين الفرنـسيين الـذين دعـوا الى الحـرب الـصليبية (قاسـم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص٩) .

(****) سان جيل : وهـي مدينـة فرنـسية صـاحبها ريمـون وهـو مـن كبـار رجـال الاقطـاع في الغـرب والمؤيـدين للبابويـة (يوسـف ، جوزيـف نـسيم ،دراسـات في تـاريخ العلاقـات بـين الـشرق والغـرب في العـصور الوسطى ، مطابع العصافرة ، الاسكندرية ١٩٨٨ ، ص٢٨) .

(*****) ديـر كلـوني : انـشاه ولـيم الاول سـنة ٩١٠م واصـبح مركـزا لمؤسسات كنيـسة ضـخمة (العـريني ، الـشرق الاوسـط والحـروب الـصليبية ،ج١،ص٩٢) .

(٦) يوسـف ، دراسـات في تـاريخ العلاقـات بـين الـشرق والغـرب في العصور الوسطى ، ص٢٨-٢٩ .

فـاهتزت مـشاعر البابـا اوربـان الثـاني عنـدما سمـع احـوال المـشرق وان الـسلاجقة اسـتولوا علـى اراضـي بيزنطـة واصـبح المـسيحيون خاضـعين للاتـراك (١) . فـسارع الى عقـد المـؤتمر في تـشرين الثـاني (١٠٩٥م) في مدينـة كليرمونـت (٢) وقـد حـضر نحـو (٣١٠) اعـضاء مـن الاساقفة

والقساوسة وعدد كبير من سكان الجهات المجاورة والقى البابا اوربان الثاني خطابا دعى فيه الناس بالتطوع للذهاب الى بيت المقدس (٣) ومساعدة البيزنطين بما يقاسيه المسيحيون من معاملة قاسية على يد السلاجقة الاتراك (٤) كما يزعم فقال(٥) ((ان مملكة الاغريق قد مزقوها ففقدت اراض من السعة بحيث لا يمكن قطعها بمسيرة شهرين ، فعلى من اذن تقع مهمة الانتقام لهذه الخطايا وتحرير هذه الارض ان لم تكن عليكم انتم...)).

ووجه البابا دعوته الى الفرسان في فرنسا للتخلص من اعمال العنف التي يقومون بها بسبب ضعف السلطة المركزية وانعدام القانون في فرنسا فاستجاب الفرسان باعداد كبيرة لنداء البابا (٦) . كما وجه دعوته الى الفقراء والمحتاجين لتحريرهم من العوز(٧) .

وكذلك وجه دعوته الى الموسرين ايضا ، طالبا من الجميع الابتعاد عن مشاحناتهم في اوربا وان يوجهوا جهودهم ضد المسلمين في الشرق حيث يرعاهم الله ويبارك جهودهم ويغفر ذنوبهم (٨) ، وقد ايد البابا جميع الحاضرين (٩) ، رغم جهل السواد الاعظم فهم بحقيقة هذه الدعوة ، وحقيقة الدوافع المحركة لها .

الشاتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص٣١ .

مونرو ، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب ، ص٢٣ .

حتي ، فيليب ، تاريخ لبنان ،ط٢،ترجمة د. انيس فريحة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٢،ص٣٤٣ .

باركر ، الحروب الصليبية ، ص٢٣ .

Krey ,A.Anegiected passage in the Gesta (The crusadeando ther Historical essays presented to Dana Munro New York ,1968) .

العلي ، مجتبـا ، مجلـة النبـا ، الحـروب الـصليبية وصـكوك الغفـران ، العـدد ٤٥ ، ايار ٢٠٠٠-صفر ١٤٢١هـ،ص٦ .
عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٢٦٥ .
عاشور ، الحركة الصليبية ، ص١٣٢-١٣٣ .
العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص١٥٤ .

وقبل انتهاء خطـاب البابـا جـاء اديمـار دي مونتيـل(*)اسـقف بـوي فركـع امام البابا ليكون اول المتطوعين (١) .
لقد كـان مطلـب بيزنطـة يختلـف عـن اهـداف الحركـة الـصليبية اذ سـعت بيزنطة الى ارجـاع الاراضـي الـتي اسـتولى عليهـا الـسلاجقة والـتي كانـت خاضعة لنفـوذهم لـذلك طلـب الكـسيوس في مـؤتمر بيـاكنزا جنـودا مرتزقـة تعمـل تحـت امرتـه لقتـال الـسلاجقة بينمـا كـان ظـاهر الحركـة بالنـسبة للغرب هو تحرير بيت المقدس (٢) .
و لم يكـن الكـسيوس اول مـن طلـب مـساعدة الغـرب اذ سـبقه بعـض الاباطرة من قبل مثل ميخائيـل الـسابع الـذي طلـب مـساعدة الغـرب لحمايـة الامبراطوريـة البيزنطيـة امـا طلبـه المـساعدة مـن الغـرب للوصـول الى الاراضـي المقدسـة فهـو امـر مـستبعد (٣) . وبعـد نهايـة الاضـطراب الـتي تعرضت لها الامبراطوريـة البيزنطيـة كـان هنـاك سـؤال يطـرح نفـسه ، هـل ان الكسيوس يريد التفـاوض مـع الـشعوب المنتـصر عليهـا ، وانـه يحتـاج الى طلـب معاونـة الغـرب الاوربي ؟ وتتـضح اهميـة هـذا الـسؤال اذا كـان الامبراطور البيزنطي قـد طلـب مـن دول الغـرب التـدخل فيعتـبر هـو المعـول على الحملة الصليبية الاولى (٤) .
واختلف المؤرخـون حـول الخطـاب الاصـلي الـذي ارسـله الكـسيوس سـنة (١٠٨٨م) الى الكونـت روبـرت الاول كونـت فلانـدرز(**) Robert II count of Flandrs في حـصوله علـى المـساعدة مـن الغـرب لحمايـة

القسطنطينية من السلاجقة وايقاف توسعاتهم ثم الاستيلاء على بيت المقدس (٥) .

(*) اديمار دي مونتيل : اسقف لابوي الذي عينه البابا اوربان الثاني الرئيس الروحي للحملة بسبب حكمته وحسن تدبيره للجيش (الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ،ص٣٧) .

حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، ص٥١ .

عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ،ص٢٦٦ .

يوسف ، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،ص١٩ .

عمران ، محمد سعيد ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار النهضة العربية ،بيروت ١٩٨١ ،ص٢٦٢ .

(**) روبرت الاول : امير الاراضي الواطئة وبلاد الفلمنك احدى مقاطعات فرنسا وهو من كبار رجال الاقطاع في فرنسا وامتدت مدة حكمه من سنة ١٠٧١،١٠٩٣ وحظيت بلاده بمكانة مرموقة من الناحيتين السياسية والاقتصادية (يوسف ، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،ص١٢) .

(٥) يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص٥٣ .

ان هذا الخطاب اثار الجدل بين المؤرخين حول نوع المساعدة اهي مساعدة الجيش البيزنطي ضد التوسع السلجوقي ام الدعوة للاستيلاء على الاراضي المقدسة ؟ وكان الكسيوس قد طلب مساعدة الجيش البيزنطي في مؤتمر بياكنزا وكلير مونت كما ذكر سابقا (١) .

لكن خطابه الى امير الاراضي الواطئة فيه من المبالغة حول ما فعله الاتراك السلاجقة ببيزنطة ، اضافة الى ما فيه من مغريات مادية بما موجود في القسطنطينية(٢) وقد نفى هذا الخطاب كل من رنسيمان

وفـــازيليف Vasiliev بـــان الامبراطـــور لم يرســـل خطابـــا الى الاراضـــي الواطئة (٣) .

ويمكـــن معرفـــة اذا مـــا كانـــت نـــصوص الرســـالة قـــد زورت ، وقـــد اثبتـــت الدراســـات الحديثـــة ان الرســـالة قـــد زورت بالترجمـــة لفـــسح المجـــال امـــام الغرب الاوربي للتدخل في املاك بيزنطة(٤) .

واضـــاف المؤرخـــان رنيـــسمان وفـــازيليف Vasiliev بـــان اســـلوب كتابـــة الخطـــاب لايتفـــق مـــع العـــادات والتقاليـــد المتبعـــة في الدولـــة البيزنطيـــة ولم يكتـــب الخطـــاب في ســـنة ١٠٨٨ وانمـــا كتـــب في ســـنة ١٠٩٨م في غـــرب اوربا (٥) . ولم يـــذكر المؤرخـــان اللاتينيـــان فوشـــيه والمؤلـــف المجهـــول اللـــذان عاشا في تلك الحقبة بـــان الكـــسيوس قـــد طلـــب تعـــاون الغـــرب للقيـــام بحملـــة على بيت المقدس (٦) .

يوســـف ، دراســـات في تـــاريخ العلاقـــات بـــين الـــشرق والغـــرب في العـــصور الوسطى ، ص١٣ .

عمران ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ،ص٢٦٣ .

يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، ص٥٣ .

عمران ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص٢٦٣ .

يوســـف ، العـــرب والـــروم واللاتـــين في الحـــرب الـــصليبية الاولى ، ص٥٣-٥٤ .

يوســـف ، دراســـات في تـــاريخ العلاقـــات بـــين الـــشرق والغـــرب في العـــصور الوسطى ، ص١٤ .

تهيئة الجيوش والزحف الصليبي نحو القسطنطينية

لقــد تحــول طلــب الكــسيوس كــومنين مــن البابويــة لمــساعده جيوشــه الى دعــوة للحــروب الــصليبية الــتي اعلنــها اوربــان الثــاني ســنة (١٠٩٥م) في مؤتمر كليرمونت ولبت دعوته جمــوع غفــيرة مــن العامــة ومــن رجــال الــدين والامــراء والاقطــاعيين والفرســان وبــذلك تكونــت الحملــة الــصليبية الاولى ســنة (٤٩٠هـــــ-١٠٩٦م) (١) والــتي قــسمت الى قــسمين القــسم الاول حملة العامة والقــسم الثــاني حملــة الامــراء والاقطــاعيين وقــد حــشد اوربــان الثاني في القسم الاول خمــسة جيــوش مــن العامــة بعــد ان طلــب البــاب مــن الاساقفة ان يدعوا للحرب الــصليبية حيــث ظهــرت جماعــة مــن الــدعاة كــان من بينهم بطرس الناسك([*]) الــذي كــان لــه تــاثيرا كــبيرا علــى عامــة النــاس وقــد طــاف فرنــسا واللــورين (٢) واســتجاب لــه الفقــراء والمعــدمون والمغــامرون والفلاحــون والتجــار الــذين يبحثــون عــن اســواق لبــضائعهم وذلك بسبب الظروف المعاشــية القاســية الــتي يعيــشها النــاس وقــد تعرضــت معظــم اراضــيهم الى غــزوات القبائــل البربريــة وذهبــت ارواح كــثيرة مــن النــاس بــسبب الحــروب بــين امــراء الاقطــاع وتعرضــت ممتلكــاتهم للنــهب والتخريــب اضــافة الى النكبــات الطبيعيــة الــتي عمــت اوربــا (٣) . لــذلك اســتجاب هــؤلاء المعــدمون للــدعوة الــصليبية المقدســة لتــضمن لهــم غفــران الــذنوب ودخــول الجنــة (٤) كمــا يعتقــدون ، وبــذلك تكونــت خمــسة حــشود غــير نظاميــة مــن العامــة ســارت في اراضــي المجــر البلقــان باتجــاه القــسطنطينية فقامــت بعمليــات النــهب والــسلب والاعتــداء علــى الــسكان المحليين الآمنين لذلك رد عليهم الهنغاريون(٥) .

---

(١) عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١،ص١٣١-١٣٢ .

([*]) بطــرس الناســك : داعيــة الحملــة الــصليبية الاولى ولــد ســنة (١٠٥٠م) وتوفي في ٨تموز (١١١٥م) بــالقرب مــن منطقــة هــوي ، ولقــد ذكــر الكــثير من القصص الخيالية حول بداية حياتــه وقــد عــرف بملابــسه الرثــة وامتطائــه

لحماره اثنـــاء تجوالـــه في اقطـــار اوربـــا يـــدعو الى شــــن الحــــرب الـــصليبية ضــــد المسلمين ، انظر :

Micropaeda , The Encyclopededia Americana (U.S.A 1962) vol.21 P.661 ؛ الجنـــابي، د. طلـــب صـــبار ، امـــارة انطاكيـــة، دراســـة في علاقاتهـــا الـــسياسية في القـــرى المجـــاورة ، اطروحـــة دكتـــوراه ،جامعة بغداد ١٩٩٦ ، ص٩٨ .

الحميـــدة ، ســـالم ، الحـــروب الـــصليبية ،ج١، دار الـــشؤون الثقافيـــة ، بغـــداد ١٩٩٠، ص٥٩-٦٠ .

ديورانت ، ول ، قصة الحضارة ،ج٤،ص١٨ .

ماير ، هانس ابرهار ، تـــاريخ الحـــروب الـــصليبية ، ترجمـــة عمـــاد الـــدين غـــانم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ، ١٩٩٠،ص٥٩ .

العلـــوي ، مجلـــة النبـــا ، الحـــروب الـــصليبية وصـــكوك الغفـــران : العـــدد ٤٥ ، ص٧ .

وقد ابيد ثلاث جيـــوش قبـــل الوصـــول الى القـــسطنطينية وذلـــك لانهـــم ســـلكوا سلوكا غـــير نظـــامي فكـــانوا يـــدمرون ويحرقـــون القـــصور في ضـــواحي المـــدن التي في طريقهم اما القوتـــان الباقيتـــان فكانـــت القـــوة(١) الاولى بقيـــادة ولتـــر المفلـــس (*) الـــذي بـــدأ رحلتـــه ســـنة (٤٩٠هــــــ في ٨اذار ١٠٩٦م) فعـــبر هنغاريا مع مجموعة كبيرة من الجنـــود المـــشاة وعـــدد غـــير قليـــل مـــن الفرســـان وقـــد منحـــه ملـــك هنغاريـــا (**) ســـوقا عامـــة لـــشراء احتياجـــاتهم ثم واصـــل مسيره الى بلغراد(***) بدون أي مشكلة (٢) .

و لم يتلـــق والتـــر تعليمـــات تتعلـــق بـــالغزو فارســـل رســـلا إلى حـــاكم بلغاريـــا يبلغه بوصوله فارســـل حـــاكم بلغاريـــا وفـــدا إلى إمبراطـــور القـــسطنطينية يبلغـــه بوصول والتر(٣) . وعندما كـــان والتـــر في بلغـــراد طلـــب مـــن دوقهـــا تجهيـــزه بالأقوات فلم يستجب لـــه و لم يـــستطع والتـــر الـــسيطرة علـــى اتباعـــه الجـــائعين فقـــاموا بعمليـــات النـــهب والـــسلب في بلغـــراد وقـــام القائـــد المجـــري بـــإحراق

الكنائس الصغيرة فاحترق عدد كبير من اتباع والتر وقد ترك والتر بعض المتهورين منهم ثم عبر الى ستراليشيا (****) Stralicia (صوفيا) وهي اكبر مدن داشيا المتوسطية . حيث أعطاه حاكمها سوقاً لشراء السلع التي يحتاجونها وباسعار زهيدة بعد ان قدم له شكوى على الاضرار والخسائر التي الحقها في بلغراد(٤) .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١،ص١٩٩-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥؛ ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص٧٠ .

(*) والتر : وهو رجل من اصل نبيل اضافة الى انه كان محاربا شجاعا (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١ ، ص١٧٧) .

(**) هنغاريا : هي بلد مسيحي في ظل القديس ستيفن الاول ١١٣٨م واستطاع ملوكها ومنهم لاديسلوس ارجاع الارض المفقودة بمساعدة البابا غريفوري الذي اصبح حاكما مطلقا لهنغاريا اسميا (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١ ، ص١٧٨) .

(***) بلغراد : وهي يوجوسلافيا عاصمة يوغسلافيا وصربيا تقع على نهر الدانوب والساف اسست سنة ١٨٦٣ واعيد تنظيمها سنة ١٩٠٥ ثم سنة ١٩٥٤(غربال ، محمد شفيق واخرون ، الموسوعة العربية الميسرة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، (بيروت ١٩٨٧)) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ص١٧٧-١٧٨ .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١،ص١٨٣ .

(****) ستراليشيا : هي صوفيا الحديثة التي كانت تعرف تريادتيزا في ظل الحكم البيزنطي (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١، ص١٧٩) .

(٤) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١، ص١٧٩ .

وقـــد أرســـل هـــذا الحـــاكم الإدلاء لإيـــصالهم إلى الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة وعندما وصـــل والتـــر الى القـــسطنطينية ، طلـــب مـــن الإمبراطـــور البيزنطـــي ان يبقى جيوشـــه قـــرب المدينـــة والأســـواق ليـــشتري الجـــيش احتياجـــاتهم بعـــد ان مثل أمام الإمبراطور وكـــان ذلـــك لحـــين مجـــيء بطـــرس ، الـــذي باشـــر والتـــر الحملة تنفيذا لأوامره (١) .

في ســـنة (٤٩٠هــــــ/٢٠نيـــسان ١٠٩٦م) ســـار بطـــرس علـــى راس جمـــوع من اتباعه الذين بلغ عـــددهم أربعـــين الفـــا حيـــث جمعهـــم مـــن قبائـــل وعـــروق وشـــعوب مختلفـــة مخترقـــا ألمانيـــا حـــتى وصـــل الى الحـــدود الهنغاريـــة البيزنطيـــة (٢) وقـــد أرســـل بطـــرس رســـالة الى ملـــك هنغاريـــا طالبـــا منـــه الـــسماح بالدخول فوافق الملـــك علـــى دخـــولهم وقـــدم لهـــم ســـكان ذلـــك البلـــد المـــؤن وبأســـعار مناســـبة وعنـــدما ســـار بطـــرس إلى مدينـــة ســـلمن(*) Silmin وعلموا بالكارثة التي حلت باتبـــاع والتـــر في هـــذه المدينـــة علـــى أيـــدي البلغـــار حين مـــرورهم بهـــا وذلـــك حـــين شـــاهدوا الغنـــائم والأســـلحة معلقـــة علـــى الأسوار مما اثـــر غـــضب بطـــرس واتباعـــه فقـــاموا بمذبحـــة مروعـــة قتـــل فيهـــا معظم سكان المدينـــة واغرقـــوا القـــسم الآخـــر في النـــهر ثم حملـــوا غنـــائم هـــذه المدينة من المؤن والحيوانات عنـــدما سمعـــوا ان ملـــك هنغاريـــا قـــد جمـــع قـــوات عسكرية ليثار لهذه المذبحـــة مـــن بطـــرس الـــذي عـــبر مـــع جيـــشه إلى الجانـــب الثاني من المدينة وعسكروا عنـــد بلغـــراد فوجـــدوها خاليـــة وكـــان ســـكانها قـــد هربوا مذعورين إلى الجبال (٣) .

ومن بلغراد ســـار بطـــرس واتباعـــه حـــتى وصـــلوا إلى مدينـــة نـــيش(**) حيـــث ينتظـــرهم قائـــد بيزنطـــي علـــى راس جـــيش قـــوي ليمنـــع وقـــوع اعتـــداءات بطرس واتباعه (٤) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١، ص١٧٩ .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ص١٣٨ .

(*) سلمن Slimin : تقع على نهر السيف قرب بلغراد وتسمى ماليفيلا (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ص١٧٨) .

(٣) الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ص١٨٠ .

(**) نيش Nish : وهي مدينة تقع على نهر مورافا في قلب شبه جزيرة البلقان (يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص١٥٧) .

(٤) ويست ، انتوني ، الحروب الصليبية ، ترجمة شكري محمود نديم ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بغداد –نيويورك ١٩٦٧ ، ص٤٤ .

وكانت مدينة نيش محصنة لها أسوار وأبراج ومحمية بقوة من الجيش وقد عسكر بطرس واتباعه بالقرب منها وعندما وجدوا قلة في المؤن طلب بطرس من حاكم المدينة ان يزوده بالمؤن حيث أجابه الحاكم بتقديم الرهائن لكي لا يلحق ضررا بمواطني المدينة فقبل بطرس هذا الشرط وقدمت لهم مؤن وفيرة وباسعار مناسبة وقد تبادلوا الأحاديث الودية بعد ان انتهى الليل وأعيد الرهائن حيث تحرك الجيش للرحيل وفي تلك الليلة احدث بعض المشاغبين مشكلة عندما كانوا يتاجرون مع أحد البلغار (١) ، حيث قام المشاغبون بإشعال النيران في بيوت القرويين بمن فيها من البشر ثم قاموا بعمليات سلب ونهب للمدينة حيث هاجم البيزنطيون جيش بطرس وقتلوا الكثير من رجاله واسروا عددا منهم وحصلوا على الأموال التي جمعها بطرس من أغنياء غرب أوربا (٢) . وهذه الرواية انفرد الصوري بذكرها ومنها ان بطرس واتباعه لم يكن أمامهم الا ان يبحثوا عن سبب هذه الكارثة وإزالة الشجار بينهما فارسل بعض الحكماء والمسؤولين الى حاكم مدينة نيش وأعيانهم للتحري عن الأسباب التي أدت الى سفك الدماء وعندما عرفوا الأسباب التي أدت الى هذه الكارثة وحاولوا التوصل إلى اتفاق بين الطرفين حدث اضطراب بين الجانبين قامت به جماعة من أعوان بطرس للانتقام من

الأضرار التي لحقــت بهــم حيــث أرســل الى بعــض المــسؤولين لتهدئــة الوضــع لكنهم لم يجدوا نفعــا فقــد وجــد الرســل الــذين أرســلوا الى الحــاكم انهــم لم يستطيعوا تهدئــة الانفعــالات بــين النــاس فتخلــوا عــن محــاولاتهم ورجعــوا إلى المعسكر ليساعدوا بطرس الناسك في قمع الشغب (٣) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ص١٨١ .
قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص١١٨ .
الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص١٨٠-١٨١ .

وقد منــع بطــرس مــساعدة المــشاغبين حيــث فتحــوا ابــواب المدينــة وقتــل خمسمائة رجل امــا البقيــة فتفرقــوا وقــد هيــا جــيش بطــرس للقتــال عنــدما شــاهدوا هــذا المــشهد وأحيطــت قــوات بطــرس بقــوات البلغــار وحــدثت مجزرة اكثر مــن ســابقتها لــذلك لم تــستطع قــوات بطــرس الــصمود فهربــوا امام قوات البلغار وقد تمزقــت صــفوفهم وفقــدوا كامــل ثــروتهم كمــا فقــدوا العربة التي تحمــل جميــع المــؤن والامتعــة وحــصل البلغــار علــى العديــد مــن الاسرى من النــساء والاطفــال ولم يــنج مــن المــوت احــد الا الــذين اختبــؤا في اعماق الغابات وبعد ثلاثة ايــام مــن التــشتت حــاول بطــرس جمــع اتباعــه بصعوبة(١) .
انــزعج الامبراطــور البيزنطــي مــن تــصرفات اتبــاع بطــرس واصــدر اوامــره عنــدما وصــلوا الى صــوفيا بواســطة احــد مندوبيــه بــان لا يبقــى الــصليبيون اكثر من ثلاثة ايام في كل مدينــة بيزنطيــة يمــرون بهــا نتيجــة لمــا احــدثوه مــن اضطرابات في سلمن ونيش ووعد الامبراطور بتجهيزهم بالمؤن (٢) .
وفي ســنة (٤٩٠هـــــ واوائــل اب ســنة ١٠٩٦م) وصــل اتبــاع بطــرس الناسك الى اســوار القــسطنطينية وكــان بانتظــاره والتــر المفلــس واتباعــه (٣)

. واتحد الجيشان بقيادة بطرس الناسك (٤) ثم توجه الى القسطنطينية تبعا لدعوة الامبراطور حيث مثل امامه فرحب به واكرمه وحثه على الانضباط واحترام حقوق السكان وتقديم النصائح للصليبيين (٥) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١، ص١٨٢ .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١،ص١٨٧ .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١،ص١٣٨ .

باركر ، الحروب الصليبية ، ص٢٦ .

فلبجي ، قدري ، صلاح الدين الايوبي : مطابع شركة الطباعة الحديثة ، بيروت ١٩٦٦ ،ص٥٤ .

وامر الامبراطور البيزنطي بتزويد قوات بطرس بالاقوات وطلب الكسيوس من الصليبيين التجمع قرب البسفور والانتظار لحين مجيء القوات النظامية الغربية(١).

وذكر البعض ان جوتييه سانز افوار هو اول من وصل الى القسطنطينية وليس بطرس الناسك كما تشير روايات اخرى (٢) .

كانت جموع العامة خارج أسوار المدينة حيث عاثوا فسادا بالقرى المجاورة اذ قاموا بنهبها وسلبوا من الأهالي قوتهم وأمتعتهم وحتى الكنائس لم تسلم منهم(٣) .لذلك استخدم الإمبراطور البيزنطي سياسة معينة لحماية إمبراطوريته من هؤلاء الذين لا يعرفون النظام وفي سنة (٤٩٠هـ/ ٧ اب-١٠٩٦م) قام بنقلهم الى شاطئ البسفور والتخلص من شرورهم(٤) . واستمرت حملة العامة بعمليات النهب والسلب والاعتداء على القرى والمزارع القريبة منهم فطلب منهم الإمبراطور البيزنطي البقاء في قلعة كيفيتوت(*) Civitot ، و لم يكن الإيطاليون والألمان على وفاق مع الفرنسيين و لم يعترفوا بسلطة بطرس الناسك

عليهم لــذلك انفــصلوا في نيقوميــديا(**) واتخــذوا رئيــسا لهــم اسمــه رينالــد . (٥)

وان الامبراطور البيزنطي كان يــزودهم بكــل مــا يحتــاجون اليــه مــن التمــوين لكن تلك الجموع الصليبية لم تبتعــد عــن اعمــال الــشغب ضــد المــدن المحيطــة بمعــسكر كيفيتــوت حيــث بــداوا بالاعتــداء علــى الــسلاجقة الاتــراك في نيقيه(٦) .

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧١ .

ينظــر في ذلــك ، مؤلــف مجهــول ، اعمــال الفرنجــة ، دار الفكــر العــربي ، القــاهرة ١٩٥٨ ، ص١٩؛ زابــوروف ، الــصليبيون في الــشرق ،ص٥٧ ؛ حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، ص٥٨ .

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٢ .

يوسف ، العرب والروم واللاتين ،ص١٦١ .

(*) كيفيتوت : (كبيوتــوس) هــو معــسكر بيزنطــي مهجــور كــان مخصــصا للمرتزقة الانكليز (ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٢) .

(**) نيقوميــديا : وهــي عاصــمة بيثينيــا (الــصوري ، تــاريخ الحــروب الصليبية ، ج١ ، ص٧٦٦) .

مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ،ص١٩، ٢٠ .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص١٨٦ .

لكن السلاجقة الاتــراك ، لمــا علمــوا بنوايــا تلــك الجمــوع الــصليبية حيــث بــداوا يعــدون العــدة ويخططــون ويــضعون الكمــائن في طريــق المعــسكر

الصليبي حيث نيقيه للقــضاء علــى كــل مــن يمــر بــالطريق المــؤدي الى نيقيــه وكما عــرف الــسلاجقة بحــب الفــرنج للمــال (١) فقــد ارســلوا الجواســيس الى معسكر الصليبيين لنــشر خــبر بــان القــوات الألمانيــة الــتي انفــصلت عــن قوات بطرس قد احتلت نيقيه وانهــا تعمــل علــى تقــسيم الغنــائم بــين افرادهــا (٢) فاتجهت جميــع الجيــوش الــصليبية نحــو نيقيــه حيــث وقعــوا في المخطــط الــتي وضــعها لهــم الأتــراك وقبــضت علــيهم الجيــوش الــسلجوقية وهزمتــهم وراح ضحيتها اعداد كبيرة من القتلى (٣) .

و لم ينجو من هذه المذبحــة غــير بطــرس وعــدد قليــل مــن اتباعــه الــذين لاذوا بالفرار الى القسطنطينية (٤) .

وكما وصلت الاخبــار الى الامبراطــور البيزنطــي فارســل قــوة صــغيرة لانقــاذ ما تبقى من الجمــوع الــصليبية وبقــوا في حمايتــه لحــين وصــول حملــة الامــراء (٥)-.-

---

ويست ، الحروب الصليبية ، ص٤٩-٥٠ .

رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج١،ص١٩١ .

عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ،ص٩٢ .

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص٧٢ .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١،ص١٩٣ .

ب- حملة الامراء والمازق الصليبي – البيزنطي

اما الجانب الثاني من الحملة الصليبية الاولى وهي حملة الامراء التي تكونت من خمسة جيوش فكانت اتجاهات الحملة مختلفة وتنظيمها واعدادها فكان يقودها قواد ذوي كفاءات ولكل منهم طابعه الخاص به(١) فكان الجيش الاول بقيادة جودفري(*) البولوني Godfrey de Bouillon يرافقه اخيه بلدوين البولوني(**) (٢) وكان الجيش الثاني تحت قيادة روبرت (***) دوق نورماندي Robert Duke of Normandy وزوج اخته ستيفن كونت بلوا Stephen of Blois (٣) .

اما الجيش الثالث كان بقيادة بوهمند(****) النورماني وكان الجيش الرابع تحت قيادة ريمون الرابع كونت تولوز(*****) Raymond iv of Toulouse وتالف جيشه من فرسان جنوب فرنسا والبروفنسال وكان معه اديمار اسقف بويه(******) المندوب البابوي (٤) اما الجيش الخامس كان تحت قيادة هيوكونت فيرماندوا(*******) Hugh count of vermandois وهو شقيق ملك فرنسا فيليب الاول(٥) .

---

(١) الحميدة ، سالم ، الحروب الصليبية ، ط،مطابع دار الشؤون الثقافية ،بغداد ١٩٩٠،ص٦٥

(*) جودفري البولوني : هو امير لوثرنجيا وقائد الجيش الذي جمعه من اللورين وشمال المانيا (الحميدة ، الحروب الصليبية ،ص٩٥) .

(٢) عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ،ص٩٨ .

(**) بلدوين البولوني : وهو مؤسس امارة الرها الصليبية واخو جودفري البولوني (عاشور ، الحركة الصليبية ، ص١٨٢) .

(***) روبــــرت دوق نورمانـــــدي : قائــــد قيــــادة الفرســــان غــــرب فرنــــسا ونورمانـــــدي اضـــــافة الى الفرســــان الانكليـــــز (قاســــم ، الحــــروب الصليبية ، ص١٢٠) .

(٣) قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ،ص١٢٠ .

(****) بوهمنـــــد : ابــــن روبـــــرت جويــــسكار النورمـــــاني وهــــو اول قائــــد نورماني (المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة ،ص٢٣) .

(*****) ريمـــون كونـــت تولـــوز : اول مـــن تطـــوع مـــن الامـــراء في مـــؤتمر كلرمونت ولـــه تـــاريخ حافـــل في محاربـــة المـــسلمين (يـــوف ، علاقـــات بـــين الشرق والغرب ،ص٥٨) .

(******) اديمـــار ، اســـقف ، المنـــدوب البـــابوي في الحملـــة الـــصليبية الاولى (باكر ، الحروب الصليبية ،ص٢٧) .

(٤) قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص١٢٠١-١٢١ .

(******) هيوكونت فرمانـــدو : هـــو اصـــغر ابنـــاء هنـــري الاول واصـــغر قائـــد وصل بيزنطة واخو فليـــب الاول ملـــك فرنـــسا وكـــان جيـــشه اصـــغر الجيـــوش (جيش ، الحرب الصليبية الاولى ،ص٦٥) .

(5) Anna Comnene: Alexiad X ,Vol,10 ,p.252 .

وكان اول من رحـــل نحـــو القـــسطنطينية هـــو هيوكونـــت فرمانـــدوا علـــى راس جيش صـــغير مـــن الفرســـان وبعـــض اتباعـــه وهـــو اول مـــن وصـــل اراضـــي بيزنطـــة وقبـــل توجهـــه الى القـــسطنطينية ارســـل وفـــدا خاصـــا الى الامبراطـــور البيزنطي يطلب من الامبراطـــور ان يقابلـــه بموكـــب احتفـــالي بمـــا يلائـــم منـــصبه الملكـــي (١) . لكـــن عاصـــفة بحريـــة واجهتـــه في الطريـــق حطمـــت اســـطوله الصغير الذي كان قـــد اجـــره ليختـــرق بـــه البحـــر الادريـــاني فغرقـــت الـــسفن ومن معه مـــن الاتبـــاع واســـتطاع احـــد ضـــباط البحـــر انتـــشاله مـــن الغـــرق وجلبـــه الى يوحنـــا(*) فاكرمـــه وارســـله الى القـــسطنطينية في حراســـة كبـــار الموظفين (٢) .

وقد استقبله الامبراطور البيزنطي استقبالا واكرمه واغدق عليه الهدايا لكنه قلص من حرية حركته ومنعه من الاتصال بالحجاج الذي امتلا به طريق الامبراطورية البيزنطية فقيد حريته ليكون جاهزا لاداء القسم (٣) . اما حملة حودفري فقد اختار الطريق الذي يخترق بلاد المجر وعندما وصل حدودها ارسل الى ملكها سفارة يطلب منه السماح له اجتياز بلاد المجر فاذن له ملكها بعد اجتماعه مع جودفري وترك اخيه وزوجته واطفاله رهينة عنده وذلك لان بلدوين(**) كان اخطر فردا في جيش جودفري وتعهد ملك المجر بتزويده بالاقوات اللازمة (٤) .

فاجتياز الصليبيون بلاد المجر بدون مشاكل وعندما وصل الصليبيون الى مدينة سلمن عند حدود بيزنطة اطلق حاكم المجر الرهائن الموجودين عنده فواصل جودفري واتباعه المسير فمروا في بلغراد وواصلوا المسير الى مدينة نيش فحصلوا على المؤن من حاكمها وقد وصلت اليه اخبارا بان هيو واتباعه قد

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص٢٠٧-٢٠٨ .

(*) يوحنا : ابن الامبراطور الكسيوس كومنين (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص٢٠٩) .

(2) Anna Comnenax ,Vol,10 ,pp.252 –253 : Mayer , Hans eberhard , The crusades ,traslated by John Gilling nam oxford university paris 1972,p.48 .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص٢٠٩ .

(**) بلدوين : اخو جودفري البولوني الذي هجر الدراسات الكنيسية للتخصص بالعمل العسكري واصبحت زوجته التي رافقته احدى شهيرات الحروب الصليبية (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص١٩٨-١٩٩)

(٤) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٤ .

حصلوا على الاموال والهدايا من الامبراطور البيزنطي لكن انباءا اخرى وصلت اليه ان هيو قد اسره الامبراطور البيزنطي (١) . فغضب جودفري وبدء ينتقم من اهل البلاد التي يمر بها فانهزم اكثريه الناس الى القسطنطينية للاحتماء بالامبراطور فعندما سمع بذلك ارسل اثنين من الرسل الفرنسين الذين يقومون بخدمته الى جودفري يطلبون منه التوقف عن اعمال الخراب التي قام بها في المدن التابعة للامبراطورية البيزنطية . (٢)

وكان الامبراطور قد اطلق سراح هيو واعتذر له وذلك ليجذبه اليه وطلب منه القسم والخضوع لاوامره ثم تحرك جيش جودفري باتجاه القسطنطينية (٣) . وكان الامبراطور البيزنطي يعتقد ان جودفري وجيشه جاء لمساعدة بيزنطة ضد المسلمين وطرد السلاجقة من الاراضي التي احتلوها في اسيا الصغرى وكان الامبراطور يرى ان جودفري مشابه لرسل باليل (٤) عندما استعان به الامبراطور البيزنطي رومنوس ضد السلاجقة لكنه اراد ان يستغل هذا النزاع بين بيزنطة والسلاجقة في انشاء دولة له في الاناضول وكما موضحا في الفصل الاول(٥) .

وان الاختلاف بين جودفري ورسل باليل ان جودفري اكثر جيشا وعتادا من سابقه لذلك يكون اكثر نفعا للامبراطورية في تحقيق مصالحها لكن الامبراطور ادرك بان قوة جودفري يمكن ان تكون خطرا يهدد مصالحها كما فعل رسل باليل بقوته وبطشه في احتلال اراضي بيزنطة فلم تكن الامبراطورية البيزنطية قد غفلت عنه فاراد الامبراطور ان لا تعاد مأساة رسل باليل .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ص١٨٤-١٨٥ .

الحريري ، سيد علي ، الاخبار السنية في الحروب الصليبية ، المطبعة العمومية ، مصر ١٣١٧ ،ص١١.

الحريري ، الاخبار السنية في الحروب الصليبية ،ص١١ .
عاشور، الحركة الصليبية ، ج١،ص١٤٨-١٥٥ .
عاشور، الحركة الصليبية ، ج١،ص١٤٨-١٥٥ .

لذلك اتبع الامبراطور البيزنطي شئ من القوة مع جودفري وهو ان يكون تابعا له من خلال قسم يمين الولاء وارجاع الاراضي التي يستولي عليها المسلمون وكان هذا هو هدف الامبراطور لتحديد العلاقة بينه وبين الصليبيين (١) .

وعندما وصل جودفري الى اسوار القسطنطينية سنة (٤٩٠هـ-١٠٩٦م) وارسل اليه الامبراطور هيو فرماندوا لكنه رفض مقابلته وقسم يمين الولاء للامبراطور لانه يكره الاستجابة لدعوته ويخشى التعامل معه لانه لم يرسل اليه ممثلين عنه(٢).

ثم بدا يعاتب هيو باستهزاء : ((انت قدمت من بلادك باعتبارك سيدا تملك ثروة هائلة وجيشا كبيرا اراك تنحدر بنفسك من هذه المكانة السامية التي كنت تتمتع بها الى مصاف العبيد والاقتان)) . فاجابه هيو : ((كان يجب علينا البقاء في ديارنا ولا نتدخل في شؤون غيرنا ولكن طالما بلغ بنا الامر الى هذا الحد فقد امسينا في حاجة ملحة الى حماية الامبراطور لنا وسوف تتطور الامور في غير صالحنا اذا لم نرضخ لمطالبه))(٣) .

وقد ارسل جودفري اعتذاره للامبراطور عن طريق رسل عنه فخاف الكسيوس من وصول بوهمند عدوه القديم وتاثيره على جودفري في اداء القسم اضافة الى تكدس الجيوش الصليبية خارج اسوار القسطنطينية والقيام باعمال الشغب وان علاقته متوترة مع جودفري منذ ارساله هيو ودعوته لزيارة الامبراطور لاداء القسم لذلك قام بالضغط عليه فقطع المؤن عن جودفري واتباعه فهاجم بلدوين بيزنطة ومدن العاصمة حيث قام الامبراطور بنقلهم الى مدينة بيرا(*) Perd لتكون معسكرا لهم (٤) .

عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١،ص١٤٨-١٤٩ .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص٢٠٦ .

يوسف ، العرب والروم واللاتين ،ص١٨٥ .

(*) بيرا Pera : وهي احدى المدن البيزنطية الواقعة على القرن الذهبي (يوسف ، العرب والروم واللاتين ،ص١٨٦) .

(٤) حبشي ، الحرب الصليبية ، ص٧٢ .

ان اسباب امتناع جودفري عن قسم يمين الولاء هي :

ان جودفري لم يقسم يمين الولاء للامبراطور البيزنطي لانه كان قد اقسم يميناً للامبراطور هنري الرابع عندما عينه دوقا للورين (١) وفي ذلك يقول عاشور ان ((ان جودفري الذي جاء تبعا لدعوة البابا اوربان الثاني وهو الامير الكاثوليكي على راس حملته فكيف يقدم ولاءه الى الامبراطور البيزنطي حامي الكنيسة الارثوذكسية وان هناك انشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية))(٢) .

كما انه لا يعمل بخطوة هامة الا بعد استشارة القادة الصليبيون الذين سوف يصلون القسطنطينية ثم رجع هيو الى الامبراطور البيزنطي الكسيوس دون ان يحصل على اجابة صريحة من جودفري (٣) .

فكان جودفري ينتظر وصول جميع قادة الجيوش الصليبية لكي ياخذوا موقفا موحدا امام الامبراطور البيزنطي لذلك اخذ جودفري يؤخر مقابلته للامبراطور(٤).

لذلك حاصر الامبراطور معسكر جودفري لمنعهم من الاتصال بغيرهم من قادة الافرنج ، لاسيما وان بوهمند في طريقه الى القسطنطينية فاراد الإمبراطور التخلص من جودفري وايجاد حل للمسالة مع وجودفري لكنه استمر مع موقفه الرافض لمطالب الامبراطور فغضب الكسيوس

وشدد الرقابة على جودفري واتباعه لمنعهم من اتصالهم بالفرنج(٥) . فقطع عنهم الاقوات والامدادات وادى هذا الى نزاع بين الصليبيين والبيزنطيين تحولت الى قتال بينهما فالجيش البيزنطي حاصر مدينة (بيرا) وقام جودفري وبلدوين بنهب المدينة واشعال النيران بها ثم غادروا المدينة الى الجهة الاخرى (٦) .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص٢١٦ .

عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص١٢ .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص١٨٦ .

عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١، ص١٤٩ .

يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص١٧٨ .

عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١،ص١٥١ .

وتم الهجوم على اسوار القسطنطينية كما تتبع الافرنج البيزنطينين حتى وصلوا الى احد ابواب قصر الامبراطور واحرقوه (١) . وقد واجه الجيش البيزنطي هجمات الفرنجة ودارت معركة بينهما استمرت خمسة ايام وتردت اوضاع الفرنجة لمنع الامبراطور المؤن عنهم وقد ارسل الكسيوس كومنين هيوفرماندوا للمرة الاخيرة الى جودفري لاقناعه بقسم يمين الولاء لكنه كان مصراً على موقفه الرافض (٢) .

ولكي ينهي الامبراطور هذه المشكلة ارسل رسلا الى جودفري ينذره من العبور الى اسيا قبل ان يؤدي قسم الولاء فغضب جودفري واتباعه فهاجموا الرسل دون ان يعرفوا منهم ما سيقولونه لذلك تصدت لهم القوات البيزنطية بقوة كبيرة من الجنود انهزم فيها جودفري (٣) .

وتبين لنا هذه الرواية التي انفرد بذكرها وليم الصوري وهو يرى ان جودفري لا يمكن اجباره على مقابلة الامبراطور باي وسيلة وذلك

لخوف الكسيوس مــن وصــول بوهمند بعــد ان عــرف بوصــول رســول منــه يحمل رسالة الى جــودفري يتوســل فيهــا بعــدم مقابلــة الامبراطــور البيزنطــي ، هذا اضــافة الى ان وصــول بوهمنــد واجتمــاع القــادة الــصليبيين مــع بعــضهم قبــل مــصالحة الامبراطــور لجــودفري فقــد يتحــدون مــع بعــضهم لتــدمير الامبراطوريــة لــذا كــان علــى الامبراطــور ان يرســل وفــدا مــرة ثانيــة الى جودفري يتوســل بــه لمقابلتــه في القــصر حيــث ارســل الامبراطــور(*) رهينــة الى جــودفري وتم اســتقبال ابــن الامبراطــور واوكــل جــودفري الى اخيــه بلدوين(٤) .

Mayer ,op, cit, P. 48 .

يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص١٨٨-١٨٩ .

جبشي ، الحرب الصليبية الاولى ، ص٧٣ .

(*) ابنــه : وهــو جــون بــورفيروجنتس المولــود في الغرفــة الارجوانيــة وولي عهد عــرش الامبراطــور الكــسيوس (الــصوري ، تــاريخ الحــروب الــصليبية ، ج١،ص٢٠٩) .

(٤) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص٢٠٩ .

ثم توجــه جــودفري الى قــصر الإمبراطــور ليقــسم لــه يمــين ، واســتقبله الإمبراطور استقبالا حــارا وتم الاحتفــال بــه وبنبلائــه وقــد اتخــذه الإمبراطــور ابنــا لــه بعــد ارتدائــه الثــوب الإمبراطــوري وتعهــد جــودفري للإمبراطــور البيزنطي بتسليم جميع الأراضــي الــتي كانــت ملكــا للإمبراطــور ، قبــل موقعــة ملاذكرد والتي ســوف يــستردها الــصليبيون مــن الــسلاجقة وتــشمل إنطاكيــة والرها(١) .

وبعــد ان اصــبح جــودفري تابعــا للإمبراطــور البيزنطــي حيــث أمــده الكسيوس بالهــدايا والخيــول والمــؤن واعتــبر اتباعــه جنــودا مرتزقــة يقومــون بخدمتــه وصــرف لكــل واحــداً منــهم راتبــا عنــد رجــوع الإمبراطــور الى

معسكره ، ثم ارسل الامبراطور ولده الى جودفري الذي اعاده برفقة الحرس وبعناية وتكريم ، واصدر الإمبراطور مرسوما ببيع جودفري ما يحتاج أليه من مستلزمات بأسعار مناسبة كما شدد جودفري على اتباعه بعدم القيام بأية إساءة إلى رجال الإمبراطور ، وفي سنة (٤٩١هـ/العاشر من نيسان ١٠٩٧م) أمر الإمبراطور بنقل جودفري واتباعه الى الشاطئ الآسوي لحين وصول حملة بوهمند النورماني (٢) .

عندما وصلت الاخبار الى بوهمند وهو الابن الأكبر لروبرت جويسكارد بان جيوشا عديدة قد توجهت الى بيت المقدس وكان بوهمند في تلك الأثناء يحاصر مدينة امالفي (*) سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٦م)(٣) لان أهلها تمردوا على الحكم النورمندي وبداوا يهددونه لذلك خرجت الأسرة النورمندية جميعها لمحاصرة المتمردين في امالفي (٤) . فعندما وصلت الى بوهمند اخبار الحملة الصليبية وجد فيها منفذا لتحقيق أحلامه في إقامة أمارة على الساحل الشرقي لبحر المتوسط لذلك ترك حصار امالفي والتحق بالحملة الصليبية (٥) .

Grousset ,Ren, Histoire does croisades du Royaume ,franc ,de Jerusalem (paris –1034) ,Vol.1,p.19 .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢١٠-٢١١ .

(**) امالفي : مدينة ايطالية ثارت ضد الحكم النورماني (عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١،ص١٥٣) .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص١٨٩ .

المؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ، ص٢٥ .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١،ص٢٢٢ .

وانضم إلى جانبه ابن أخته تنكرد(*) إضافة الى نبلاء النورمان الاقوياء من فرنسا وايطاليا وصقلية وكان جيشه اقل عددا من جيش جودفري لكنه اكثر تدريبا وعدة فعبر جيشه البحر الادرياني وساروا حتى وصلوا

الى دور ازو فاوصى بوهمند اتباعه بعدم العبث فيها لانها بلادا مسيحية كما تزود منها بكميات كافية من المؤن(١) . ثم سار اتباع بوهمند حتى وصلوا الى كاستوريا(**) ولم يقبل سكان هذه المدينة بتقديم ما يحتاج اليه بوهمند واتباعه لان هؤلاء اعداء قساة ،لكنهم استخدموا القوة في الحصول على احتياجاتهم وتوجه بوهمند شرقا وهاجم القرية القريبة من كاستوريا فقتلوا سكانها حرقا او بالسيف واحرقوا ابنيتها واستولوا على كميات كبيرة من الغنائم (٢) .

ارسل الامبراطور اوامره الى قادة جيوشه ان يبلغوا الصليبيين بعدم البقاء اكثر من ثلاثة ايام في المناطق التي يمرون بها مع ملازمة الجيوش الصليبية دائما وان يقوموا بالهجوم على الجيش المتقدم عندما يسمح لهم المجال وقد اوفد الامبراطور الى بوهمند بعض نبلاء عائلته وهم يحملون رسالة مكتوبة ورسالة شفوية من الامبراطور البيزنطي تتضمن الكف عن القيام بالنهب والحرق والعنف وانه سوف يحصل على العديد من الهدايا والمنح اضافة الى توفير احتياجات جيشه من السلع والمؤن ، وشكر بوهمند الامبراطور للكرم الذي ابداه ثم تصرف بحذر لانه كان يعلم مدى الحقد الذي ينويه الامبراطور له (٣) .

فقد اجتاز قسم من اتباعه البحر وبقي القسم الاخر يتهيا للاجتياز(٤) لذلك وجد جيش الامبراطور بان المجال مفتوحا لمهاجمة جيش بوهمند من الخلف وعندما سمع تنكرد بذلك عبر الى الضفة الاخرى وهاجم جيش الامبراطور وطارد فلوله

(*) تنكرد : ابن اما Emma ابن اخت بوهمند ووالده اسمه وليم المركيز والاخرين يدعونه اودو وان والده مسيحيا لاتينيا (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص٢١٥) .

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ص٢٢٣-٢٢٤ .

(**) كاستوريا : وهي مدينة تقع غرب مقدونيا (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢٢٤) .

(٢) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ص٢١٢ .

(٣) المصدر نفسه ،ج١ ، ص٣١٢ – ٣١٣ –٣١٤ .

(٤) الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص٤٤ .

المنهزمة وقتل عددا منهم ووقع عدد من الاسرى بيد بوهمند فاطلق سراحهم لما عرف بانهم يقاتلون عندما يطلب منهم الامبراطور وطلبا للرزق وقد قابل بوهمند العدوان بالتسامح وضبط النفس ليمنع شكوك الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين وبهذه الطريقة استطاع ان يكسب ود الامبراطور البيزنطي لكي يزود قواته بالمواد الضرورية من السلاح والاقوات (١) .

وسار جيش بوهمند حتى وصل الى سيرا (*) Serra حيث التقى برسل الامبراطور البيزنطي وطلبوا منه مقابلة الامبراطور البيزنطي مع عدد قليل من مرافقيه وترك عساكره تحت قيادة تنكرد فقد خاف من نوايا الامبراطور البيزنطي كما وصل اليه جودفري ليطلب منه الاستجابة لمقابلة الامبراطور والمثول امامه واخيرا اقتنع بكلام جودفري وذهب معه (٢)- .

فوصل بوهمند اسوار القسطنطينية في التاسع من نيسان ونزل في دير القديسين وفي اليوم الثاني اراد الكسيوس كومنين اللقاء مع بوهمند لوحدهما ليختبر موقفه نحوه فوجده بانه صادق في كلامه ومساندته لذلك اشرك في المناقشات الدائرة بينهما كل من بلدوين وجودفري لانهما يعتقدان ان بيزنطة دولة قوية فمن المصلحة التحالف معها (٣) .

وعندما وصل بوهمند الى القصر الامبراطوري استقبله الكسيوس كومنين استقبالا حارا ووصفت (آنة) استقبال والدها لبوهمند حيث تقول(٤) :((ان اباها استقبل الامير النورماندي مرحبا ومحييا وان الابتسامة لم

تكن تفارق وجهه وان اخد يسال عن احواله وعن رحلته والمكان الذي ترك فيه باقي النبلاء الذين جاءوا معه من الغرب وكان بوهمند صريحا واضحا في اجابته عن الاسئلة التي وجهها اليه الكسيوس لكي يسترد ثقة الامبراطور فيه)) .

---

(١) المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ،ص٢٨ .

(*) سيرا : وهي مدينة تقع في مقدونيا الشرقية (المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة ،ص٢٨) .

(٢) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢١٤-٢١٥ .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١،ص٢٢٦-٢٢٧ .

Alexiad ,op .Cit ,Vol.10.p.p .265-266 .

وبعد الانتهاء المقابلة وفي ظروف قائمة على المحبة والانسجام اعلن بوهمند تبعيته للامبراطور البيزنطي بعد ان اقسم يمين الولاء له واغدق عليه الهدايا الثمينة كالذهب والاواني والاثواب والاحجار الكريمة (١) .

وقد طلب بوهمند من الامبراطور البيزنطي اقطاعا في مدينة انطاكية فوافق الامبراطور على طلبه (٢) ، كما طلب منه ان ينصبه قائدا عاما لقوات الامبراطورية في اسيا الصغرى ليسيطر على الجيوش المتحالفة ويتحكم في علاقتها بالامبراطور وقد تحرج الامبراطور من طلب بوهمند هذا ووعده بهذا المنصب حين توفر الظروف المناسبة (٣) .

وسار الحال بين الامبراطور البيزنطي والنورمان بحسن سياسة الكسيوس كومنين(٤) . اما تنكرد فقد انزعج من تصرفات بوهمند وعبر البسفور بجيشه دون علم الامبراطور كي لا يقسم يمين الولاء للامبراطور وعندما علم به غضب منه وانضمت جيوشه مع جيوشه جودفري(٥) .

ثم جاءت الحملة البرو فانسالية (*) سنة(٤٩٠هـ/ تشرين الاول ١٠٩٦م) وكان قائدها ريمون الرابع دي سانت جيل كونت تولوز وهو من اكبر امراء جنوب فرنسا واكثر قادة الصليبيين مالا انضم الى حملته

عدد كبير من الفرسان ورجال الاقطاع من جنوب فرنسا وقد وفر المؤلف لاتباعه على طوال رحلته وكان الرئيس الروحي لحملته ادهمار(**) الذي عينه البابا (٦) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج١، ص٢١٥ .

المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة ، ص٣١؛ زكار ، د. سهيل ، الموسوعة الشاملة ، ج١، تحقيق وترجمة د. سهيل زكار ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، (دمشق ١٩٩٥) ، ص٨٩ .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١، ص١٩٣-١٩٤ .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ص١٥٦ .

المؤلف المجهول ،اعمال الفرنجة ، ص٣٢ .

(*) البروفانسالية : هم جيش ريموند الذين قدموا من برجنديا واوفرن وغسقونيه واشتهروا بهذا الاسم (العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص١٩٥) .

(**) ادهمار مونتي : وهو اسقف مدينة بوي (باركر ، الحروب الصليبية ،ص٢٧) .

(٦) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص٧٥ .

وسارت الحملة من جنوب فرنسا ومرت شمال ايطاليا ولم تحدث اعمال الشغب ووصلت الى دورازو وتوثقت العلاقة بين حاكمها(*) وريموند وكان حرس الامبراطور البيزنطي ورسله يرقبون وصول ريمون واتباعه لمراقبتهم على الطريق الامبراطوري كما اوفد ريموند سفارة الى الامبراطور ليكون على علم بوصوله (١) . وسار ريموند واتباعه حيث وقعت اشتباكات بين جيش الامبراطور وقوات ريموند الذين كرهوا الجيش البيزنطي بسبب مراقبتهم لهم فقتل اثنين من البروفنسالين ثم

واصل ريموند وجيشه المسير وفي الطريق تاه ادهمار فهاجمه الجيش البيزنطي المرافق لهم فجرح واسر وبقي في سالونيك(**) لحين شفائه ثم التحق بجيش ريموند الذي واصل سيره الى (روسه)(***) حيث قاموا بنهب دور المدينة لعدم توفر المؤن لبيعهم مما زاد من كراهية اهلها لريموند واتباعه(٢) . وفي تلك الاثناء وصل اليه وفدا يحمل رسالة من الامبراطور ودعوة جودفري وبوهمند بالحضور فترك ريموند جيشه وعجل في وصوله الى القسطنطينية ظنا منه في عدم وجوده سوف تتخذ قرارات هامة .

وعندما وصل ريموند القسطنطينية حيث نزل في قصر خارج اسوارها وفي اليوم التالي دعاه الامبراطور للحضور في قصره فاستقبله استقبالا لائقا ثم طلب منه ان يقسم له يمين الولاء بعد ان جرت بينهما المحادثات الودية (٣) . فرفض ريموند ذلك باعتباره قائدا عسكريا للحملة وفي تلك الاثناء وصلت أليه اخبار قواته التي تركها بيد قادة الجيش واتجه الى القسطنطينية حيث منيت بالهزائم وتركت امتعتها واسلحتها ولاذت بالفرار بسبب مهاجمتها الجهات التي فيها الجيش البيزنطي(٤) .

(*) حاكم دور ازو : هو يوحنا كومنين ومورين الامبراطور الكسيوس كومنين (يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص٢٠٧) .

(١) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج١،ص١٩٦-١٩٧ .

(**) سالونيك : وهي مدينة بيزنطية هامة قاعدة للاسطول البيزنطي في البحر الايجي ومرفا لاصلاح السفن وهي عاصمة مقدونيا (غنيم ،د. اسمت ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، (الاسكندرية ١٩٨٧)، ص١٠١) .

(***) روسه : المنطقة الاوربية من تركيا كيشان حاليا (ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٦) .

(٢) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٦ .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١،ص٢٣٤-٢٣٥ .

(٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١،ص٢٣٣-٢٣٤ .

وقد وجد ريموند بان مركزه مهدد عندما سمع بان الامبراطور سوف يعين بوهمند قائدا للجيوش الصليبية فاذا اعلن تبعيته للامبراطور فانه سوف يقع تحت ضغط بوهمند الذي يعتبره منافسا خطيرا له (١) .

وقد شك ريموند في علاقة بوهمند الودية بالكسيوس فهو يكره بوهمند وليس الامبراطور ، كما ان الكسيوس كومنين لم يمنحالهدايا الثمينة لريموند كما منحها لبقية الامراء من قبله (٢) ، وقد حاول بوهمند ارضاء الامبراطور البيزنطي فتعهد له بانه اذا ما هاجمه ريموند سوف يقف وقواته الى جانبه ضد ريموند (٣) . ونتيجة لهذا الضغط والتهديد استشار ريموند بقية اتباعه حول موقفه من الامبراطور فاتبع صيغة تساوي صيغة قسم فتعهد باحترام ارادة الامبراطور والحفاظ على حياته وعندما وجه الامبراطور الدعوة اليه لحضور الحفل الذي اعده للامراء الذين اعلنوا تبعيتهم له ، اعلن انه لن يحضر هذا الحفل ولو تم هلاكه(٤)
.

وفي تلك الظروف وصل ادهمار واصلح العلاقة بين ريموند والامبراطور البيزنطي حيث التقى الامبراطور بريموند لوحدهما بعد ان ذهب بوهمند الى اسيا واوضح له بانه لا يجعل من بوهمند قائدا عاما وانه يكره النورمان ثم توثقت العلاقة بينهما وجعل ريموند من اصدقائه وحليفا له (٥) .

مایر ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٩ .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج١، ص١٩٨-١٩٩ .

المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة ، ص٣٢ .

المصدر نفسه ، ص٣٢ .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص١٩٩ .

اما الحملة الفرنسية فقد اشترك فيها فوشيه الشارتري(*) وروبرت الثاني(**) امير الاراضي الواطئة اما قائد الحملة الفرنسية فهو روبرت تورهميز(***) امير نورمنديا Robert courteheuse وصهره ستيفن كونت بلوا (****) وخادم الكنسية ارنولف(*****) Arnulf(١) .

وفي اذار سنة ١٠٩٧ م سارت الحملة الفرنسية بعد ان تحولت في ايطاليا وروما وباركها البابا حيث عبرت البحر الادرياني وغرقت احد سفنها في البحر مع حمولتها وغرق معها اربعمائة شخص واستمر سير الحملة حتى وصلت الى دورازو و لم تحدث اعمال شغب في الطريق حيث ارسل الامبراطور عدد من الادلاء لمرافقة القوات الصليبية الى طريق القسطنطينية وعندما وصل الجيش الصليبي الى اراضي البلغار حيث كان هناك نهر الشيطان (******) تغمره مياه الفياضات وسريع التدفق وفي اثناء عبور القوات الصليبية غرف عدد من افرادها(٢) .

ثم واصلوا السير حتى وصلوا الى اسوار القسطنطينية فوضع الجيش في معسكرات خاصة لهم خارج اسوارها وقد قبل الامبراطور بدخول اربعة او خمسة من افراد الجيش لمشاهدة القسطنطينية وزيارة كنائسها(٣) .

وقد اغدق الامبراطور لهم من الاموال والمؤن للجيش الصليبي فشكروه

علـــى ذلـــك ثم قـــام قـــادة الحملـــة بقـــسم يمـــين الـــولاء للامبراطـــور واعـــلان تبعيتهم له فزاد الامبراطور بتقديم الهدايا الثمينة

(*) فوشـــيه الـــشارتري : كـــان قسيـــسا انـــضم الى الحملـــة الـــصليبية الاولى والتي انتهت بـــاحتلال القـــدس واصـــبح احـــد مؤرخيهـــا (الـــشارتري ، تـــاريخ الحملة الصليبية الى القدس ، ص١٠) .

(**) روبـــرت الثـــاني ده فلانـــدرز : ابـــن روبـــرت الاول وقـــد اســـتخدمه الكسيوس ضـــد الـــسلاجقة واســـترد الاراضـــي المقدســـة (الـــصوري ، تـــاريخ الحروب الصليبية ، ص٢١٦) .

(***) روبـــرت كـــورتميز : هـــو الابـــن الاكـــبر لـــوليم الفـــاتح ويطلـــق عليـــه معاصروه اسم الدوق الطيـــب لطيبتـــه وحـــسن ســـجاياه ورهـــن دولتـــه لاخيـــه ولـــسم روفـــرس Wiliam Rufus لحـــصوله علـــى الامـــوال وانفاقهـــا علـــى الحملـــة وســـاهم في الاســـتيلاء علـــى القـــدس (رنـــسيمان ، تـــاريخ الحـــروب الصليبية ،ج١،ص٢٣٦-٢٣٧) .

(****) ســـتيفن كونـــت بلـــوا : صـــهر روبـــرت كـــورتميز انتخـــب رئيـــسا للجيش الـــصليبي بعـــد اســـتيلاء اللاتـــين علـــى نيقيـــه (يوســـف ، العـــرب والروم واللاتين ، ص٢١٥) .

(*****) ارنولـــف Arnulf الخـــادم الخـــاص لكنيـــسة روبـــرت كـــورتميز ثم اصـــبح بطريـــق لبيـــت المقـــدس (يوســـف ، العـــرب والـــروم واللاتـــين ، ص٢١٥) .

(١) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٦-٧٧ .

(******) نهـــر الـــشيطان: الـــذي يقـــع في اراضـــي مهجـــور في البلغـــار (الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص٤٤)

(٢) الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص٤٢-٤٣-٤٤ .

(٣) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٧ .

لهم جـــراء ســـلوكهم هـــذا . ولغـــرض التحـــاقهم بـــالجيوش الاخـــرى ومحاصـــرة نيقيه فعبروا البسفور بعد بقائهم اسبوعين في القسطنطينية (١) .

وبسبب الاعـــداد الكـــبيرة مـــن الجيـــوش الـــصليبية المتوجهـــة نحـــو القـــسطنطينية ضـــجر الامبراطـــور البيزنطـــي الكـــسيوس كـــومنين لاســـيما وان بعـــض القـــادة اعداء قـــدماء للامبراطـــور ومنـــهم بوهمنـــد ومؤيديـــه الـــذين يريـــدون ان يتـــاح لهم مجالا للانتقـــام منـــه وقـــد امـــر الامبراطـــور فـــصائل القبائـــل (*) ان تراقـــب الجـــيش الـــصليبي وان تتـــصدى لهـــم وتطـــردهم اذا اغـــاروا علـــى الاراضـــي المجـــاورة للامبراطوريـــة البيزنطيـــة (٢) . وكـــان الامبراطـــور لا يحـــب هـــؤلاء المتوحشين لكنـــه يحتـــاج الى معاونتـــهم ضـــد الـــسلاجقة وكـــان لقائـــه معهـــم بالحذر وعـــدم الثقـــة لـــذلك اســـتخدم معهـــم المـــديح والوعـــود والرشـــوة(٣). فكانـــت بيزنطـــة تـــرى في هـــذه الجيـــوش تحقيـــق اهـــدافها الـــسياسية لان الكسيوس لم يحتـــاج الى ايـــة امـــدادات ســـوى جنـــود مرتزقـــة يقـــاتلون تحـــت امرته عدوا اســـتولى علـــى الارض الـــتي كانـــت خاضـــعة لنفـــوذه الـــسياسي (٤) لذا فقد اختلفـــت المطـــامع والاهـــداف بـــين الكـــسيوس والفـــرنج فكـــان قـــادة الفرنج يحـــسون بالحاجـــة الى تاييـــد بيزنطـــة لهـــم في اســـتيلائهم علـــى اراضـــي جديدة يحكمونها في الشرق (٥) .

لذلك بـــدا الـــصليبيون بالتقـــاطر علـــى بيزنطـــة فحـــاول الامبراطـــور البيزنطـــي انقيادهم اليـــه واخـــضاعهم لـــسيطرته مـــن خـــلال الـــسياسة الـــتي اتبعهـــا بـــين السلب والايجـــاب باســـتعماله القـــوة وحـــسن المعاملـــة وتوزيـــع المـــؤن وقطعهـــا وفرض الرقابة وبـــذلك اســـتطاع الامبراطـــور تحقيـــق هدفـــه (٦) . مـــن خـــلال عقـــد الاتفاقيـــة في ســـنة (٤٩١هـــــ/ايـــار ١٠٩٧م) بالقـــسطنطينية فكـــان لبوهمند الدور الاكـــبر فيهـــا وتـــنص علـــى انقيـــاد قـــادة الـــصليبيين لاداء يمـــين الولاء والتبعية

---

(١) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢٢٧ .

(*) فصائل القبائل : وهم قبائل البتشينيغ العاملة في خدمة الامبراطور البيزنطي (زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص٦٨)

(٢) زاريوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص٦٨ .

(٣) علي ، برناردين ، فتح القسطنطينية ، دار التضامن للتجارة والطباعة ، بغداد ١٩٦٢ ، ص٥٧ .

(٤) عاقل ، نبيه ، الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ١٩٦٩،ص٦٦ .

(٥) يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص٢٢٢ .

Anna ,op,cit ,Vol:10 , p.262 .

للامبراطور باستثناء تنكرد وريموند تولوز واعادة الاراضي التي كانت تابعة للامبراطورية بعد تخليصها من قبضة السلاجقة الاتراك(١) . كما تعهد الامبراطور البيزنطي بحماية ومساعدة الصليبيين عند مرورهم باراضيه وان تشارك فرقة من الجيش البيزنطي مع القادة الصليبيين عندما تبدا الحملة وان يزود الامبراطور الصليبي بالاقوات عند الحاجة (٢) .

ووعد الكسيوس الصليبيين بانه سوف يشارك في الحملة الصليبية المتجهة الى بيت المقدس واحتراما لتنفيذ الاتفاقية فقد جعل الكسيوس ابنه وصهره كرهائن وتنفيذ لهذه الاتفاقية فقد سلمت نيقيه الى بيزنطة من قبل الصليبيين(٣) . بعد ان تم تخليصها من السلاجقة الاتراك .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٨٩ .

غنيم ، د. اسمت ، تاريخ الامبراطورية ، ص١٤٥ .

المصدر نفسه ، ص١٤٥ .

وسار بوهمند مع هؤلاء الذين يعتبرهم كادلاء له ولما وصل الى نهر فاردار(***) (الوردار) .

الموقف العام قبل الحملة الكاثوليكية في اوربا:

اهتم تيبالد(*) كونت شامبانيا اهتماماً كبيراً بالمبادرة في توجيه حملة صليبية جديدة نتيجة للمباحثات التي قامت بين اصدقائه وجيرانه بعدما ساهم في مهرجان المبارزة الذي عقد في تشرين الثاني (٥٩٦هـ-١١٩٩م) اذ تم استضافة فولك(**) اسقف نيللي تبعاً لاقتراح تبيالد وكان فولك يتمتع بالفصاحة والاقناع فاستطاع اثارة حماس المجتمعين الذين وعدوه بالاشتراك في الحملة الصليبية الرابعة وارسل رسولاً الى البابا ليعلمه بذلك(١)-.

وقد رحب البابا انوسنت(***) الثالث بالاخبار التي وصلته من تيبالد كونت شامبانيا بان الحملة الصليبية الرابعة تعمل على توحيد العالم المسيحي بضم العاصمتين الغربية والشرقية في وحده دينية واخضاع كنيسة بيزنطة لسيادته عن طريق اقناعهم بان روما تتفوق على

القسطنطينية من الناحية العقائدية وان يكون البابا صاحب السلطة في غرب اوربا (٢) . وكان البابا قد دعى الى توجيه حملة صليبية منذ وصوله الى منصب كنيسة روما سنة (١١٩٨م) وذلك بسبب الوضع المقلق في المشرق كما دعى البابا الى مساهمة المسيحيين الشرقيين والغربيين في الحملة الصليبية الرابعة التي تتوجهه الى بيت المقدس(٣) .

(*) تبيالد كونت شامبانيا:هو ابن اخ غير شقيق لريتشارد قلب الاسد وابن اخت غير شقيقة لفليب اغسطس وشقيق لهنري كونت شامبانيا (رنسيمان ،تاريخ الحرب الصليبية ،ج٢ ،ص ١٣٩)

(**) فولك اسقف :نيللي :وهو من دعاة الحرب الصليبية الرابعة ومن خطباء البابا ومندوبيه (جيبون ، ادوارد،اطمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ج٣، ترجمة محمد سليم سالم ، المؤسسة المصرية للتاليف والنشر ، (القاهرة ١٩٦٩)، ص١٢٢

(١) رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية :ج٣، ص١٩٥؛ ويست ،الحروب الصليبية ،ص١٤٠،١٣٩ .

(***) البابا انوسنت الثالث : وهو من اعظم الشخصيات التي تولى منصب البابوية سنة ١١٩٨م في العصور الوسطى (عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢، ص٩٢٩) .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣،ص١٩٦-١٩٧ ؛ كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص١٢؛ باركر، الحروب الصليبية ،ص٩٦ .

(٣) عاشور ، الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في العصر الايوبي ، ص٢٧٩ .

وكان اهم مبشري البابا في فرنسا هو فولك الذي دعى اهل الريف بالدخول مع اسيادهم في الحرب المقدسة من خلال جولاته في البلاد اضافة الى ما دعى اليه مارتن(*) من اثاره في المانيا (١) . وكانت الحملة الصليبية الرابعة حملة فرنسية تاليفاً فقط وكان اعضائها من الامراء البارزين (٢) .

وتم اختيار تيبالد(**) كونت شامبانيا قائد للحملة الصليبية الرابعة وبلدوين التاسع(***) امير الفلاندر واخوه هنري(****) ولويس كونت بلوا(*****) وجفري الثالث(******) بونيفاس موتفرات(*******) Boniface of montferrat (٣) .

(*) مارتن : رئيس دير بايريس في المانيا (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣،ص١٩٩) .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣، ص١٩٩ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢،ص٩٢٩ .

(٢) باركر ، الحروب الصليبية ،ص٧٤ .

(**)تيبالد كونت شامبانيا : هو من كبار التابعين وامراء الطبقة الثانية الذي كان سياقا في الزحف الى بيت المقدس (جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج٣،ص٢١٢) .

(***) بلــدوين التاســع : وهــو مــن ابــر شخــصية في الحملــة الرابعــة واول امبراطــور لاتــيني للامبراطوريــة البيزنطيــة بعــد ان ســقطت بيــد الــصليبيين (الحميدة ، الحروب الصليبية ،ج٤،ص١٩٧) .

(****) هنــري شــقيق بلــدوين التاســع : وهــو مــن الفرســان الــذين لعبــوا دورا في العمليــات العــسكرية واوفــوا العهــود الــتي اعلنوهــا في الكنــائس ونوقشت العمليــات في اجتماعــات كــبيرة قــرروا فيهــا انقــاذ فلــسطين مــن مــصر (جيبــون ، اضــمحلال الامبراطوريــة الرومانيــة وســقوطها ، ص٢١٣) .

(*****) لويس كونت بلوا : وهــو مــن ابنــاء عمومــة ملكــي انجلتــرا وفرنــسا (عبيد ، روما وبيزنطة ،ص٣١٩) .

(******) جفــري الثالــث فيليهــا : وهــو مارشــال شمبانيــا لــه دور رئيــسي في الاعمال الــسياسية والحربيــة فهــو ســجل مذكراتــه عــن الحــرب الــصليبية مــن ســنة (١١٦٠-١٢١٣) (ديورانــت ، قــصة الحــضارة ،ج٤،ص٤٧) .

(*******) بونيفــاس مــوتفرات Bonface of montferrat : هــو امــير ايطــالي ينتمــي الى عائلــة هوهنــستوفن الالمانيــة الحاكمــة في الامبراطوريــة الرومانية المقدســة في الــصقليتين وانتخــب رئيــسا للحملــة الرابعــة (اليوســف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص١٥٢) .

(٣) كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص١٢ .

دوافع الحملة

أ – الدوافع غير المباشرة

لقد وجد الغرب الاوربي بان هناك اسبابا كثيرة لمهاجمة القسطنطينية منها :-

١ : الانقسام بين الكنائس عندما كانت الحركة الصليبية قد بدات فان العداء ضد بيزنطة قدم في الغرب اضافة الى سياسة عمانويل العدائية ضد الصليبيين (١) .

٢ : كره اللاتين لبيزنطة مما اتاح المجال للدوق (*) البندقي والقائد الصليبي ان يجعلا الراي العام يساندهما(٢) . فالسياسة التي اتخذتها بيزنطة هي استرجاعها الاقاليم التي فقدتها في الشرق الادنى واعتمدت في ذلك على الصليبيين القادمين من الغرب مقابل ما تقدمه من الاموال لذلك تعد سياسة بيزنطة تجاه الصليبيين سياسة قائمة على المساعدات القليلة ، او تعمل احيانا على عرقلة واضعاف الحملات من خلال خططها مما يؤدي الى فشل تلك الحملات الصليبية(٣) .

٣ : لقد وجد الدوق البندقي ان الامن الدائم للبندقية في الشرق يمكن الحصول عليه بتدمير الامبراطورية البيزنطية رغم الامتيازات التي حصلت البندقية عليها في عهد الكسيوس الاول في البر والبحر وقد اكد اباطرة بيزنطة يوحنا الثاني وعمانويل الاول ان البندقية لايمكنها التسليم بامتيازاتها التجارية رغم المحاولات المتكررة للامبراطورية لزعزعة الكابوس البندقي والذي عانت منه واظهرت ثورات واحتجاجات عديدة مما خلق لديها شعورا بعدم الامان الدائم(٤).

فلم تنسَ البندقية ما قام به عمانويل بتخريب حيها في القسطنطينية وتعريض امتيازاتها التجارية للضرر سنة (٥٦٧هـ-١١٧١م)(٥) .

---

(1) Ostrogorsky , G, op .cit .p.44 .

(*) الدوق البندقي : امير البندقيــة اسمــه هنــري دانــدولو الــذي وجــه الحملــة الــصليبية الرابعــة الى القــسطنطينية لتحقيــق طموحاتــه التجاريــة بعــد احتلالــه للقــسطنطينية (كلـــي ، برنــاردين ، فــتح القــسطنطينية : ترجمــة شــكري محمـــود نـــديم ، دار التـــضامن للتجـــارة والطباعـــة والنـــشر ، (بغـــداد ١٩٦٢)،ص٥٩-٦٠ .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣،ص٢١١ .

(٣) بـــاركر ، الحـــروب الـــصليبية ، ص٩٨؛ هـــسي ، العـــالم البيزنطـــي ، ص٢٨٠ .

(4) Ostrogorsky ,G , op .cit .p.414 .

(٥) رنـــسيمان ، المدنيـــة البيزنطيـــة ،ص٥٩ ؛ بـــاركر ، الحـــروب الـــصليبية ،ص٩٩ .

ولم تـــنس مذبحـــة ســـنة (٥٧٨هــــــ-١١٨٢م) في عهـــد انـــدرونيكوس وتعــرض تجارتهـــا الى خــسائر فادحـــة(١) . ولم يـــنس دوق البندقيـــة مـــا فعلـــه عمانويـــل الـــذي كـــان قـــد سمـــل عينيـــه وهـــذا كلـــه ادى الى زيـــادة الحقـــد والكراهية لبيزنطـــة(٢) . لـــذلك كـــان الامـــر يتطلـــب انطـــلاق الـــشرارة الاولى من البندقية لتتحـــرك بعـــد ذلـــك جميـــع القـــوى المعاديـــة الـــتي تنتظـــر الفرصـــة المؤاتية لاســـتغلال المـــصاعب الـــتي تواجههـــا الامبراطوريـــة البيزنطيـــة والحـــصول علـــى مكاســـب جديـــدة فـــان اقـــصاء الامبراطوريـــة البيزنطيـــة مـــن الـــساحة السياسة سوف يتـــيح الـــسيادة البحريـــة للبندقيـــة في البحـــر المتوســـط ،الـــسيادة التي كنـــت للامبراطوريـــة تهـــددها وكـــذلك الـــشعب الاغريقـــي الـــذي كـــان يهدد تلك السيادة(٣) .

٤ : الطموح النورمـــاني القـــديم بالوصـــول الى القـــسطنطينية وقـــد تـــازم الوضـــع عندما اســـتولى روجـــر الثـــاني علـــى جنـــوب ايطاليـــا الـــتي تعتـــبر مـــن امـــلاك

الدولـــة البيزنطيـــة ومـــا قـــام بـــه هنـــري (*) الـــسادس وريـــث النورمنـــديين بمهاجمة ومطالبته بعرشـــها وذلـــك لـــزواج اخيـــه مـــن ابنـــة اســـحاق الثـــاني (٤) . وفي الحملـــة الـــصليبية الثانيـــة تمـــت مناقـــشة فكـــرة الـــسيطرة علـــى القـــسطنطينية بحـــضور لـــويس الـــسابع وقـــد نوقـــشت هـــذه الفكـــرة خـــلال الحملة الصليبية الثالثة لفردريك بارباروسا(٥) .

-

رنسيمان ، ستيفن ، الحضارة البيزنطية ، ص٢٠١-٢٠٢ .

جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج٣،ص٢٢٤ .

Setton , op.cit ,Vol,11,p.150 .

(*) هنـــري الـــسادس : هـــو ابـــن فردريـــك بربروســـا وخليفتـــه علـــى العـــرش تزوج مـــن ابنـــه وليـــام النورمـــاني وورثتـــه (عاقـــل ، الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ،ص٣١٠) .

باركر ، الحروب الصليبية ،ص٩٩ .

Ostrogorsky ,op.cit ,p.414 .

٥ : ان الـــصليبيين كـــانوا قـــد اختـــاروا لقيـــادتهم بونيفـــاس مـــونتفرات وكـــان ســـبب توجهـــه الى القـــسطنطينية لان اخويـــه قـــد تعرضـــا الى قـــساوة ســـادة الامبراطوريـــة البيزنطيـــة مـــن خـــلال خدمتـــهما فيهـــا ، اضـــافة الى ارتبـــاط فيليب بصلة القرابة مع الكسيوس الصغير لزواجه من اخته(١) .

٦ : كـــان الكـــسيوس الـــصغير قـــد طالـــب بـــالعرش بعـــد ان ســـجنه عمـــه الكسيوس الثالث مع ابنـــه اســـحاق الثـــاني المخلـــوع مـــن العـــرش وسمـــل عينيـــه لكن الكـــسيوس تمكـــن مـــن الهـــرب الى المانيـــا ســـنة (٥٩٨هــــــ-١٢٠١م)(٢)

وكان عمه قد اخرجه من السجن واخذه معه لمقاتلة احد الضباط المتمردين(٣) .وقد فر الى زوج اخته ملك المانيا فيليب وكان لديه استعداد لمساعدته لكن اضطراب الوضع الداخلي في المانيا جعل فيليب يتفق مع الصليبيين والدوق لمساعدة اسحاق الثاني وابنه بارجاعهما الى عرش بيزنطة(٤) .

٧ : كان سبب تحويل البندقية لاتجاه الحملة الرابعة نحو القسطنطينية هو للقضاء على منافستها بيزا في تجارة البحر المتوسط حيث ان الكسيوس الثالث قد زاد من امتيازاتها التجارية في القسطنطينية لكنه ضيق الخناق على تجارة البندقية فكان على البندقية ان تسعى للانتقام من الكسيوس الثالث انجيلوس(٥) الذي عمل على محاربة مصالحها .

باركر ، الحروب الصليبية ، ص١٠٠ .

هامرتن ، تاريخ العالم ،ج٥،ص١١٧ ؛ لامب هارولد ، شعلة الاسلام ، ترجمة محمود عبد الله يعقوب ، مطبعة الارشاد ، (بغداد ١٩٦٧)،ص٣٣١ .

عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٣٢٣ .

عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ،ص٣١٤ .

فشر ، اوربا في العصور الوسطى ، ج١،ص٢٤٥ .

ب – الدوافع المباشرة

ان مطالبة الكسيوس الصغير بالعرش ومساندة الزعماء الصليبيين لهذا المطلب ، لتنفيذ مآربهم الخاصة ضد بيزنطة ، يمثل السبب المباشر لتغيير وجهة الحملة الرابعة للاستيلاء على القسطنطينية بدلا من الذهاب الى

الـــشرق ، وعنـــد التوقـــف في دور ازو تم الاعتـــراف بالكـــسيوس الـــصغير امبراطوراً على بيزنطـــة ثم عقـــد الكـــسيوس اتفاقيـــة مـــع حلفائـــه وتم اســـتئناف مـــسير الحملـــة نحـــو القـــسطنطينية حـــتى وصـــلت الى اســـوارها ولم يكـــن الامبراطور الكسيوس الثالث قـــد وضـــع التـــدابير اللازمـــة لمنـــع وصـــول الجـــيش الصليبي (١) وقد دخـــل الـــصليبيون مـــن اســـوار القـــسطنطينية واحتلـــوا المدينـــة بعد ان كسروا الـــسلاسل الحديديـــة الـــتي كانـــت حاميـــة للقـــرن الـــذهبي كمـــا احرقت سفن البنادقة سفن الروم (٢) .

واستطاع الكـــسيوس الـــصغير ان يحمـــل الـــصليبيين علـــى الاعتقـــاد بـــان كـــل بيزنطـــة ســـوف تنـــهض للترحيـــب بـــه ؛ ولكـــن انـــدهش الـــصليبيون عنـــدما وجدوا بـــان جميـــع ابـــواب المدينـــة قـــد اقفلـــت وان جميـــع الجيـــوش البيزنطيـــة كانت مرابطـــة علـــى الاســـوار للـــدفاع عـــن المدينـــة وقـــد دهـــش الكـــسيوس الثالث ايضا عندما راى ذلك (٣) .

وعندما وجد الكـــسيوس الثالـــث نفـــسه في حـــيره امـــام عـــدوه ارســـل رســـالة الى القـــادة اللاتـــين يقـــول فيهـــا : ((فـــانتم مـــسيحيون والامبراطـــور وشـــعبه ايضا مسيحيون)) وكان الموفـــد الـــذي حمـــل الرســـالة القـــائم في خدمتـــه وهـــو مـــن اللاتـــين وقـــد ثـــار في وجـــه الموفـــد شـــاعر لاتـــيني قـــائلا(٤) : ((ان الكسيوس الثالث قد اغتـــصب التـــاج البيزنطـــي دون حـــق وعليـــه اعـــادة التـــاج الى الكسيوس الصغير ووضع نفسه تحت رحمته)) .

رنـــسيمان ، تـــاريخ الحـــروب الـــصليبية ،ج٣،ص٢١٣؛ لانجـــر ، تـــاريخ العـــالم ،ج٣،ص٦٩٤ .

رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ص١٧٨ .

كلاري ، فتح القسطنطينية ،ص٧٨-٧٩ .

عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٣٣١-٣٣٢ .

وقام الكسيوس الثالث بالهجوم على البنادقة فاشعلوا النيران بينه وبينهم وعندما اتجه لمحاربة الفرنجة هاجموه من الخلف واجبروه على الانسحاب (١) . وحين لاحظ الكسيوس الثالث قوة الجيوش الصليبية ندم على قيامه بسمل عيني اخيه وتمنى لو انه يستطيع اعادته الى العرش لكنه جمع ما يستطيع جمعه من الاموال(٢) وملا حقيبة بالاحجار الكريمة ثم هرب خارج اسوار المدينة وبصحبته ابنته وتحت وطاة الظلام (٣) .فاصبح العرش الامبراطوري شاغرا وعندئذ تم فك اسر اسحاق الثاني من قبل الموظفين وتنصيبه امبراطورا وتتويج ابنه شريكا له في الحكم واطلق عليه الكسيوس الرابع وطلب من حلفائه ايقاف الهجوم(٤) .

كما دعى الصليبيون والبنادقة الكسيوس الرابع الى احترام الاتفاقية المعقودة بينهما بان يدفع الاموال المتفق عليها وتكوين قوة عسكرية توجه معهم الى بيت المقدس(٥) . فكان على الكسيوس ان يطلب من الصليبيين البقاء لمدة سنة في القسطنطينية لحين توفر الاموال لديه لكن زيادة الاحتكاك بين الروم واللاتين نتيجة لازدياد فترة بقائهم ادت الى زيادة الكراهية بينهما(٦) .

ان الكسيوس الرابع هو الذي جلب الفرنجة الى القسطنطينية وقد سخط الشعب البيزنطي عليه بعد ان وجدوه انتهازيا كما كره الشعب ال انجيلي جميعهم(٧) . وفي سنة (١٢٠٣م) ازداد جو المدينة توتراً عندما فرض الكسيوس الرابع ضرائباً على الشعب واغضب الكنيسة عندما بدل كثيراً من الاواني الكنسية واعطاها للبنادقة وتعطلت التجارة(٨) .

لامب ، شعلة الاسلام ،ص٣٦٢ ؛ ديورانت ، قصة الحضارة ، ج٤، ص٥٠ .

Setton ,op.cit Vol .II ,p.150 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣،ص٢١٥ .

ديورانت ، قصة الحضارة ، ج٤، ص٥٠ .

رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج٢،ص١٧٨ .

كلاري ، فتح القسطنطينية ،ص٩٧ .

المصدر نفسه ،ص١٧ .

ديورانت ، قصة الحضارة ،ج٤،ص٥٠ .

وقد توسل الكسيوس الرابع الى القادة الصليبيين ان ينقلوا خيامهم العسكرية خارج المدينة فوافق الصليبيون على ذلك (١) و لم يشعر الناس بالامان خارج القسطنطينية لان جماعات من اللاتين تقوم بنهب ضواحي المدن(٢) .

وجرت مواجهة بين اللاتين واهالي العاصمة البيزنطية وادت هذه المواجهة الى نشوب حريق اصاب كثيرا من المباني والكنائس اذ وصلت النيران الى الميناء واحرقت احد الاحياء المكتظة بالسكان فاهلكت اعداداً كبيرة من سكانه وبقيت النار مشتعلة لمدة اسبوع وحدث هذا الحادث بعد مغادرة الكسيوس الرابع خارج العاصمة (٣) . ونتيجة لهذه الاحداث المروعة التي قام بها الصليبيون بدا الكسيوس الرابع بتغيير سياسته تجاه الصليبيين والبنادقة وذلك لترضية الشعب البيزنطي فقد قطع الهدايا التي كان يرسلها للقادة الصليبيين والبنادقة واخذ يستعلي عليهم لذلك تم تهديده من قبل البنادقة والصليبيين (٤) .

وبالنظر لموقف الكسيوس الجديد عقد قادة الصليبيين ودوق البندقية اجتماعا مشتركا وقرروا فيه ارسال وفد الى القصر الامبراطوري ، وذهب الوفد سنة ١٢٠٤هـ وطالبوا اسحق وولده بالوفاء بوعودهما للحملة وهددوه اذا لم يفي بوعوده(٥) . كما ارسلوا اليه وفدا اخر للمطالبة بحقوقهم المتفق عليها، وكان جوابه على هذين الوفدين بانه لايخشاهم ولن يحصلوا منه على أي شئ واصدر امرا اليهم بمغادرة بلاده وهددهم بالعقوبة اذا لم يتركوا بلاده(٦) . وبعد ان انتهى الوفد من تهديداتهم كانت اصوات الجالسين داخل الغرفة تطالب بمعاقبة وفد الفرنجة الذين هربوا بصعوبة من الحرس البيزنطي (٧) .

قلبجي ، صلاح الدين ،ص٤٦١؛ لامب ، شعلة الاسلام ،ص٣٦٤ .

كليتي ، فتح القسطنطينية ،ص٦٠ .

ابن العـــبري، تـــاريخ مختـــصر الـــدول ،ص٣٩٦ ؛ ويـــست ، الحـــروب الـــصليبية ، ص١٤٤ ؛ دحـــلان ، الـــسيد امـــد بـــن زيـــني ، الفتوحـــات الاســـلامية ، ج٢،مطبعـــة المـــدني ، القـــاهرة ١٩٦٨، ص٣؛ لامـــب ، شـــعلة الاســـلام ، ص٣٦٦ .

عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٣٣٥ .

رنـــسيمان ، تـــاريخ الحـــروب الـــصليبية ، ج٣،ص٢١٨ ؛ كـــلاري ، فـــتح القسطنطينية ، ص٩٨ .

كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص٩٨ .

جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج٣،ص٢٣٨ .

موقف المدن الايطالية من الحملة الرابعة

كان الدوق هنري داندولو الرئيس الاعلى للبندقة في السلم والحرب وهو من الشخصيات البارزة في عهده وكان فاقداً للبصر لكنه امتاز بالشجاعة وحبه لوطنه وقوته العقلية(١) . وقد اكرم المحاربين وتعهد بتزويدهم بعدد كاف من السفن والمؤن بعد اجتماعه بهم وان يشترك بخمسين سفينة حربية مقابل الحصول على نصف البلدان التي يحصلون عليها في البر والبحر وان يدفع المحاربون اثمان نقلهم بالسفن(٢) . وقد عقد الدوق اجتماعا دعى فيه المحاربين الصليبيين وقرروا في الاجتماع توجيه الحملة الى مصر لانها مركز القوة الاسلامية في الشرق وبعدها التوجه الى الاراضي المقدسة (٣) .

وبدات استعدادات اهل البندقية بالتحضير للحملة فاملات المخازن بالعلف والمؤن وبناء معسكرات للجيش واصطبلات للخيول اضافة الى زوارق حربية وسفن واصبح الاسطول مهيا للابحار(٤) .

ثم بدا الصليبيون يتجمعون في البندقية وقد دفعوا المال الذي كانوا قد جمعوه للحملة عندما طالبهم دوق البندقية به مقابل نقلهم في سفنه وفي ذات الوقت كان الدوق قد تحالف مع السلطان العادل مؤكدا عدم اشتراكهم مع الصليبيين ضد مصر في الحملة لانهم حصلوا على امتيازات تجارية واتفاقيات مهمة في الاسواق المصرية تحقق لهم ارباحا كثيرة منحها العادل وذلك للعلاقات الطيبة بينهما وفي الاسكندرية وافق العادل على انشاء فندق للبنادقة وتقليل نسبة الضرائب عليهم (٥).

جيون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج٣،ص٢١٦-٢١٧ .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج٣،ص٢٠٥ .

المطوي ، الحروب الصليبية ، ص١٠٢ ؛ قاسم، ماهية الحروب الصليبية ، ص١٤٨ .

جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج٣،ص٢١٦-٢١٧ ؛

Brundage , James ,A,The crusades , The marquette university (Press –1962) , P. 193 .

(٥) عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢،ص٩٣٣ ؛ فشر ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ج١، ص٢٤٤-٢٤٥ .

وعندما لم يجد الصليبيون المال الكافي لغرض تسديد ما تطلبه البندقية لذلك طلب منهم دوق البندقية استرجاع مدينة زارا(*) المسيحية التي احتلها ملك المجر وتقديمها الى البنادقة مقابل نقلهم الى مصر فوافقوا على ذلك (١) . وكانت نية الدوق البندقي هو الانتقام من الامبراطورية البيزنطية والاستيلاء على القسطنطينية لما مرت به البندقية من الاهانات من قبل اباطرة بيزنطة(٢) .

احتل الصليبيون مدينة زارا واغضب هذا العمل البابا انوست الثالث عليهم واصدر قرار الحرمان ضدهم ثم اصدر قرار الغفران بحقهم بعد ان تم ارسال وفد من الاساقفة وكبار امراء الصليبيين (٣) . فقد وجد دوق البندقية ان الفرصة سانحة له لفتح موضوع احتلال القسطنطينية عندما وجد ان الصليبيين لم يكن لديهم المال والذخيرة وانهم سوف يصلحون احوالهم في بيزنطة ويتجهون الى بيت المقدس (٤) وفي تلك الاثناء وصلت سفارة الى زارا من قبل فيليب (**) امبراطور المانيا تطلب من الدوق والصليبيين مساعدة اسحاق الثاني وابنه الكسيوس الصغير للوصول الى عرش بيزنطة(٥) .

وهنا قد يثار السؤال من الذي غير اتجاه الحملة من مصر الى القسطنطينية؟ هل يوجد تحالف سابق بين قادة الحملة هنري البندقية ؟ لقد كانت وجهة الحملة الى بيت المقدس لاسترجاعه من المسلمين بعد

ان تم تحريرها علـــى يـــد صـــلاح الـــدين الايـــوبي ٥٨٣هــــــ-١١٨٧م وضـــرب مــــصر مركـــز قـــوة المـــشرق العـــربي وجعلـــها قاعـــدة تنطلـــق منـــها الجيـــوش الصليبية الى بيت المقدس (٦) .

-

(*) زارا : مدينـــة في يوغـــسلافية تقـــع علـــى ســـاحل البحـــر الادرباتيـــك في مقاطعة دالماشيا (المطوي ، الحروب الصليبية ،ص١٠٤) .

(١) ديورانت ، قصة الحضارة ،ج٤،ص٤٧-٤٨ ؛

Brundag , op.cit ,p.196 .

(٢) هسي، العالم البيزنطي ، ص٢٠٨ ؛

(٣) عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢،ص٩٣٢ .

(٤) يوســـف ، تـــاريخ الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص١٥٢؛ هـــسي ، العـــالم البيزنطي ،ص٢١٧ .

(**) فيليـــب : دوق ســـوابيا امبراطـــور المانيـــا وزوج اخـــت اســـحاق الـــصغير (هسي ، العالم البيزنطي ،ص٢٠٧)

(٥) رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج٢، ص١٧٧ .

(٦) فشر ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ،ج١،ص٢٤٤ .

وكان العامل الاكبر في تغـــير ســـير اتجـــاه الحملـــة هـــم البنادقـــة الـــذين اتخـــذوا مـــن الـــدين ســـتارا لهـــم لاقامـــة دول وامـــارات خاصـــة لتحقيـــق اهـــدافهم الشخصية ولا دخل لمغريات سلطان مصر في تغير اتجاه سير الحملة(١) .

كما ان ظهور الكـــسيوس الـــصغير بعـــد ســـقوط زارا وتقـــديم عروضـــه المغريـــة للصليبيين والبنادقة بمـــا يحتاجونـــه مـــن الامـــوال والمـــؤن عنـــد احـــتلالهم مـــصر ووعد انـــه ســـيقدم الامـــوال الـــتي بذمـــة البنادقـــة للـــصليبيين ويخـــضع كنيـــسة القسطنطينية لكنيسة روما وســـوف يقـــدم فرقـــة مـــن الجـــيش البيزنطـــي اذا مـــا توجهـــت الحملـــة باتجـــاه القـــسطنطينية(٢) فهـــذا لـــيس دليـــل الـــصدفة وانمـــا

خطـــة دبرهـــا قـــادة الحملـــة مـــن البنادقـــة الايطـــالين والالمـــان والفرنـــسيين لاحـــتلال بيزنطـــة (٣) . وقـــد فـــرح بونيفـــاس مـــونتغيرت

Boniface of Montferratقائـــد الـــصليبيين وكـــان لديـــه رابطـــة عائليـــة قديمة تربط اســـرته بالـــشرق كمـــا فـــرح الـــدوق البنـــدقي بهـــذا العـــرض لانـــه ســـيتيح لـــه المجـــال للتـــدخل في شـــؤون بيزنطـــة (٤) . (الـــتي تـــتلخص في احتكـــار التجـــارة الـــشرقية وبنـــاء امبراطوريـــة تجاريـــة تـــتحكم باقتـــصاديات وثروات عالم البحر المتوسط)(٥) .

عندما تعهد الكـــسيوس الرابـــع للبنادقـــة بانـــه ســـوف يتحمـــل كـــل نفقـــات الحملة الرابعة بعدما يرجـــع الى عـــرش بيزنطـــة مـــع والـــده لكنـــه نقـــض عهـــده عندما طالبه البنادقـــة بحقـــوقهم(٦) . فهـــدده دوق البندقيـــة عنـــدما ارســـل اليـــه احد مبعوثيه لغرض اللقاء به والتحـــاور معـــه علـــى انفـــراد عنـــد المينـــاء فحـــضر الامبراطور البيزنطـــي وهـــو يمتطـــى حـــصانه فقـــال(٧) لـــه الـــدوق : ((نحـــن الـــذين رفعنـــاك مـــن هاويـــة القـــذارة وســـنردك ثانيـــة اليهـــا واني لمتحـــديك ومنذرك لتعلم علم اليقين انـــي منـــذ هـــذه اللحظـــة فـــصاعدا ســـاحق بـــك مـــن الاذى كل ما في قدرتي))

كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص٢٠-٢١ .

جيبـــون ، اضـــمحلال الامبراطوريـــة الرومانيـــة وســـقوطها ، ج٣، ص٢٢٢ ؛ ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢٨٢-٢٨٣ .

كلاري ، فتح القسطنطينية ،ص٢٠ .

لانجر ، موسوعة تاريخ العالم ،ج٣ ، ص٦٩٤ .

زيتـــون ، عـــادل ، العلاقـــات الاقتـــصادية بـــين الـــشرق والغـــرب في العـــصور الوسطى ، دار دمشق للطباعة والنشر ،د.م ١٩٨٠) ،ص٧٦ .

رســـتم ، الـــروم وصـــلاتهم بـــالعرب ، ج٢، ص١٧٧ ؛ توفيـــق ، تـــاريخ الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص١٩٨-١٩٩ ؛ قلجـــي ، صـــلاح الـــدين

،ص٤٥٩-٤٦١ ؛ د. قحطان عبد الستار الحديثي ، د. صلاح عبد الهادي الحيدري دراسات في التاريخ الساساني ولبيزنطي ، ص٤٢٣ ؛ المطوي ، الحروب الصليبية ، ص١٠٤
كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص٩٨ .

وعندما لم يجد البنادقة أي مجال للتفاهم مع بيزنطة قرروا الاستيلاء على القسطنطينية بالقوة فقد سنحت لهم الفرصة عندما ثار شعب بيزنطة لتنحية الكسيوس الرابع عن منصبه فقد (١) اضطربت احوال بيزنطة وانتشرت الفوضى فيها في ظل تلك الظروف استطاع البنادقة ان يجدوا طريقا للتسلل الى اسوار المدينة فتزل بعض جنود البنادقة وفتحوا ابواب القسطنطينية فدخلتها الجيوش الصليبية (٢) وتمت مهاجمتها وتقسيمها بين القادة وبذلك سقطت القسطنطينية سنة (٦٠١هـ-١٢٠٤م)(٣) فحصلت البندقية على النصيب الاكبر من الغنيمة فازدات قوتها واستولت على الطرق البحرية وعلى المطابق والممرات المائية وتم تعين بطركيا بندقيا للقسطنطينية (٤) .

ثم اصبحت جزيرة كريت من ممتلكات البنادقة عندما قام الدوق البندقي بشرائها من بونيفاس مونتغيرات Boniface of Montferrat وقد اطلق دوق البندقية على نفسه لقب ((سيد الربع ونصف الربع جميع الامبراطورية البيزنطية)) وبقي هذا اللقب يستعمل حتى منتصف القرن الرابع عشر لمن جاء من بعده من الخلفاء(٥) ووجدت البندقية ان في الامبراطورية البيزنطية فرصة سانحة لها للنهب والتجارة(٦) . كما وجدت اباطرة اللاتين اداة سهلة في يدها لان البنادقة لم (يؤدوا يمين الولاء للامبراطور اللاتيني في القسطنطينية عندما تم تقسيم الامبراطورية الرومانية)(٧) .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص١٩٩ .

كلبتي ، فتح القسطنطينية ،ص٦٠ .

ابن الفرات ، لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ، تاريخ ابن الفرات ،م٥،ج١، تحقيق د. حسن محمد الشماع ، دار الطباعة الحديثة ، بصرة ـ العراق ١٩٧٠، ص١٢ ؛ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ،ج٣، تحقيق جمال الدين الشيال ، مطابع دار العلم بالقاهرة ١٩٦٠ ،ص١٦٠ ؛ القلقشندي ، صبحي الاعشى في صناعة الانشا ، ص٤٠٨ ؛ الذهبي ، في خبر من غبر ، ط٢، ج٥، ص .

د. قحطان عبد الستار ،صرح الدين عبد الهادي الحيدري ، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي ، ص٢٢٤ ؛ قلقجي ، صلاح الدين ،ص٤٦٥ .

زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص٧٥ .

فهمي ، د. عبد السلام ، فتح القسطنطينية ، دار الكتاب العربي ،(د . م) ١٩٦٠،ص٢٥ .

زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص٧٦ .

اما جنوه وبيزا فلم يكن هناك ما تشير اليه المصادر الحديثة بدورها في الحملة الرابعة فقد قال (١) روبرت كلاري : ((ان وفدا صليبيا قد اتجه الى جنوه وبيزا للحصول على مساعدتهما من اجل الحملة الا ان الجنوبيين رفضوا تقديم اية مساعدة في حين اعتذرت بيزا عن تقديم العون للصليبيين بحجة انها لاتملك العدد المطلوب من السفن)) .

عنـــدما اســـتولى اللاتـــين علـــى القـــسطنطينية ســـنة (٦٠١هــــــ-١٢٠٤م) لم يعتـــرف الجنـــوبيين بالامبراطوريـــة اللاتينيـــة لــــذلك تعرضـــت مـــصالحهم ومصالح البيازنة للخطر من قبل اللاتين في القسطنطينية (٢) .

كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص٤٠ .

زيتون ، العلاقـــات الاقتـــصادية بـــين الـــشرق والغـــرب في العـــصور الوســـطى ، ص٧٨ .

جرت مصادمات بين الاغريق واللاتين ووصلت ذروتها في كانون الثاني سنة (٦٠١هـ -١٢٠٤م) عندما حاول الاغريق ارسال سفن خشبية مشتعلة لترتطم بسفن البنادقة ، الا ان الاسطول لم يحترق سوى سفينة واحدة للبنادقة كانت راسية هناك(١) . وقد ثار الشعب الاغريقي على الكسيوس الرابع لفشله في السيطرة على الجيوش الصليبية ، ولشدة خوفه فكر في استدعاء الفرنسيين والايطالين لحماية قصره الملكي(٢) عندئذ قام الكسيوس دوكاس(*) بالاستيلاء على العرش سنة ١٢٠٤م وسجن اسحق وسمى نفسه الكسيوس الخامس وقد عاش اسحاق فترة قصيرة وربما خنق الكسيوس الرابع في سجنه ايضا (٣) .

ان الكسيوس الخامس لم يكن متسامحا مع اللاتين فقد وضعهم نصب عينيه، فكان يراقبهم وان قساوته الشديدة قد خلقت له اعداء كثيرين(٤) ، فقد اقصى الوزراء غير الموالين له و لم يكن لديه الوقت لجلب جيوش جديدة لان حراس المدينة قد تغيرت اخلاقهم بسبب الثورات لذلك كان هناك من الخونة في الداخل الذين تعاونوا مع البنادقة مقابل حصولهم على الاموال (٥) .

فكانت القوات القسطنطينية تقاتل بعناد شديد الجيوش الصليبية عند مدخل اسوار القسطنطينية فهي تصد الهجمة تلو الاخرى واخيرا انكسر المعسكر البيزنطي وفر قائد القوات البيزنطية من ارض المعركة(٦) .

---

(١) كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص٩٩-١٠٠ ؛ لامب ، شعلة الاسلام ،ص٣٦٦ .

(*) الكسيوس دوكاس : هو ابن اخر لزوجة الامبراطور الكسيوس الثالث ، Setton , po.cit ,Vol .II ,p.150

lbid , op .150 ;

؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ،ص٣٩٦
Ostrogorsky op. Cit ,p.315 .
Setton , op.Cit .Vol .II, p.151 .
رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣،ص٢٢٠ .
ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ،ص٣٩٦ ؛
Setton , op.Cit .Vol .II, p.151 .

ودخل الصليبيون القسطنطينية وهم سكارى وقاموا بعمليات النهب والتدمير للكنائس ومكتباتها فكسروا اواني الفضة وقطعوا مفروشاتها وستائرها وربطوا حيواناتهم بداخلها وداسوا الكتب المقدسة (١) .

وقد وصلت النيران التي اشعلها الصليبيون الى الجامع الذي بني في عهد بني امية والذي اقيمت فيه الخطبة سنة (٥٨٥هـ-١١٨٩م) عندما تم الصلح بين الامبراطور وصلاح الدين وقد ماتت اعداد كبيرة من النساء والاطفال عندما تعرضت البيوت والاكواخ الى هجوم وتدمير من قبل الجيوش الصليبية . (٢)

ازاء هذا الموقف اتفق الفرنجة والبنادقة على اقتسام القسطنطينية فيما بينهم فاصبح نصيب الصليبيين خمسة اثمان والبنادقة كان نصيبهم ثلاثة اثمان القسطنطينية اضافة الى الجزر البحرية وخصص ربع القسطنطينية للامبراطور الذي سوف يتم اختياره من بين قادة الحملة الصليبية الرابعة(٣) . ومن قبل لجنة تتكون من اثنى عشر شخصا نصفهم من الفرنجة ونصفهم من البنادقة(٤) . وتم اختيار الكونت بلدوين فلاندرز امبراطورا لاتينيا فكان غنيا ومتسامحا ومن عائلة عريقة(٥) .

كما تم تاليف لجنة لمساعدة الامبراطور الجديد في توزيع الاقطاعات على قادة الصليبيين وتعيينهم في المناصب العليا للامبراطورية وتكونت اللجنة من اربعة وعشرين شخصا قسم منهم من البنادقة والقسم الاخر من الفرنجة . ويصادق البابا على ما يقرره اتفاق الفرنجة مع البنادقة(٦) .

---

(١) ايـــن كـــثير ، الحـــافظ ، البدايـــة والنهايـــة ،ج١٣، ص٣٦ ؛ ابـــن العـــبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص٣٩٧؛ كلتي ، فتح القسطنطينية ، ص٦١ .

(٢) ايـــن كـــثير ، البدايـــة والنهايـــة ،ج١٣، ص٣٦ ؛ غنـــيم ، تـــاريخ الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص١٥٩ ؛ ديورانـــت ، قـــصة الحـــضارة ،ج٤، ص٥٠ .

Hussey , Goan ,Cambirdge , medieval History (Thuniversity press –cambirdge , 1966) , Vol..4 , part ,1 .p.288 ,

؛ بن العبري ، تاريخ مختصر الدول ،ص٣٩٧ .

Ibid , P.288 .

؛ عاقل ، الامبراطورية البيزنطة ، ص٣١٧-٣١٨ .

ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص٣٩٧ .

عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٣٤١ .

موقف حكومة نيقيه من اللاتين

الحملـــة الـــصليبية الرابعـــة لم تـــستطع الـــسيطرة علـــى الامبراطوريـــة البيزنطيـــة بالكامـــل بـــل وظـــل قـــسما مـــن اســـيا الـــصغرى تابعـــا للاغريـــق واســـتطاع ثيـــــودور(*) الاول لاســـــكاريس Theodore Lascaris ان يجمـــــع جميـــــع الرجال لمقاومة اللاتين من اماكن متعـــددة ومـــن ظـــل حيـــا مـــن جنـــود بيزنطـــة لينـــشئ في المنفـــى مركـــزاً للـــسلطة البيزنطيـــة في نيقيـــه ســـنة (١٢٠٤م)(١) وكان لهذه الامبراطوريـــة حـــضورا اكـــبر مـــن الامبراطوريـــات الـــتي نافـــستها في المنفـــى . وان مـــا حققتـــه مـــن نجـــاح يرجـــع الى قـــدرة امبراطورهـــا ثيـــودور لذلك كان اللاتـــين يقلقـــون مـــن حكومـــة المنفـــى لانهـــا تهـــدد امبراطوريتـــهم اللاتينيـــة بالـــسقوط وتعمـــل علـــى ارجـــاع الامبراطوريـــة البيزنطيـــة (٢) وقـــد فشل اللاتـــين في اخـــضاع شـــعب اســـيا الـــصغرى لـــسيطرتهم لكنـــهم غـــضوا النظر عن ذلـــك عنـــدما تم اســـر امبراطـــور اللاتـــين اثنـــاء حـــربهم مـــع البلغـــار (٣) .

وبما ان البندقية هي المحرك لتوجيه الحملة الى القسطنطينية لتفتيت الامبراطورية البيزنطية وتكوين امبراطورية اللاتين لذلك كان عليها ان تحمي هذه الامبراطورية وتدافع عنها حفاظا على امتيازاتها للتجارية لان الضرر الذي يصيب الامبراطورية اللاتينية يلحق الاذى بالبندقية لذلك كانت تخشى مما حققته نيقيه من نجاحات على اللاتين فكانت ترى ان وجود نيقيه هو خطر يهددها لذلك كان عليها التقرب من نيقيه واقامة علاقات تجارية معها (٤) .

ويبدو مما تقدم ان هذه الحملة كانت تحركها وتحدد مسارها المصالح الذاتية للقائمين بها بغض النظر عن الاسس المبدئية التي يزعم قادة هذه الحملة انهم قد حشدوا قواتهم من اجلها .

(*) ثيودور لاسكاريس : زوج ابنة الامبراطور الكسيوس الثالث وكان محاربا وسياسيا ، يوسف ، جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ط٣، طبع في مطابع رويان ، (القاهرة ١٩٧١) ،ص٣١٧ .

يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٣١٧ ؛ غنيم ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ،ص١٦٢.

يوسف ، تاريخ الدولة البيزنيطة ، ص٢٦٩-٢٧٠ .

رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ص١٨٤ .

زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب ، ص٨١ .

الأوضاع السياسة والعسكرية للامبراطورية الرومانية إلى أواخر القرن الرابع ميلادي

تمهيد: تحولت روما من النظام الملكي الدي بدأت به تاريخها إلى النظام الجمهوري الدي شمل القرون الخمسة الأخيرة قبل الميلاد. وتم لروما خلال هذه المرحلة دعم نظامها السياس في الداخل وفرض نفوذها في

الخارج حتى صارت مع اقتراب القرن الأخير قبل الميلاد قوة سياسية وعسكرية هائلة ودولة عظيمة في العالم القديم٥. وكان يمثل روما اثنان من القناصل يمثلان السلطات العليا في الجيوش الرومانية، وكان يتجدد انتخابهما كل عام، وكان هناك مجلس السيناتو sénat أو مجلس الشيوخ الذي كان يمثل السلطة التشريعية في روما.

وخلال هذا العصر الجمهوري تمت أغلب الفتوحات الرومانية الهامة واتسعت مساحة الامبراطورية الرومانية إلى أقصاها أواخر القرن الأخير قبل الميلاد في عهد الامبراطور أوغسطس، وفي القرن الأول الميلادي أضيفت إليها ولاية بريطانيا، وهكذا صارت حدود الامبراطورية الرومانية تمتد من المحيط الأطلسي غرباً والراين والدانوب شمالاً والفرات شرقاً وصحراء العرب وصحراء إفريقيا جنوباً. وكان الحد الشمالي عند نهر الراين والدانوب يفصل بين العالم الروماني وعالم البرابرة٦ وهو المصطلح الذي أطلقه الرومان واليونان على تلك

الشعوب التي لا تتقن اللغة اليونانية واللاتينية وهذا المصطلح يحمل في طياته معاني الاحتقار الذي يعني المتوحش٧. وامتد الحد الجنوبي إلى جبال الأطلس في إفريقيا وشلال النيل والصحراء الإفريقية وامتد الحد الشرقي من صحراء الشام وفلسطين إلى بلاد القوقاز كما مثل الميحيط الأطلسي حداً غربياً للعالم الروماني.

وقد أدى التنافس بين قادة الجيش في القرن الأخير من عهد الجمهورية إلى إهمال التقاليد التي كان معمولاً بها وصار الانتصار في الحرب مبرراً كافياً للوصول إلى قمة السلطة، وكان أول من فعل ذلك هو أكتافيوس الذي انتصر على خصمه أنطونيوس سنة ٣١ق.م وهكذا صار هناك ما

---

[5] نقصد بالعالم القديم الصين والفرس وبلاد الرافدين ومصر.

[6] محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ أوربا في العصورالوسطى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية،١٩٩٥، ص ص.٩-١٠

[7] حاطوم نور الدين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، مطبعة دمشق١٩٨٧، ص.١٧

يعرف بالامبراطورية الرومانية التي تعتبر تاريخها في القرون الأولى للميلاد المدخل الطبيعي لتاريخ العصور الأوربية الوسطى.

٢- عناصر الوحدة في الامبراطورية الرومانية إلى غاية القرن الثالث الميلادي

يذكر الدكتور م.م. الشيخ أن عناصر وحدة الامبراطورية الرومانية كانت تتمثل في الجوانب التالية:

نشأة حركة التجارة وتبادل السلع بين الأقاليم ويرجع هذا الازدهار في التجارة إلى شبكة طرق المواصلات المزدهرة، وكثرة الانهار الصالحة للملاحة وكذلك البحر المتوسط الذي يشكل مجالاً هاما للحركة التجارية في أوربا والمشرق وشمال إفريقيا.

وحدة اللغة: وذلك بسيادة اللغة اللاتينية في غرب أوربا وانتشار اللغة اليونانية في الشرق، وهذا ما أدى إلى وجود تجانس بين مختلف الأقاليم من الناحية الثقافية.

تمتع المواطن الروماني بحقوق المواطنة الرومانية خصوصاً بعد صدور مرسوم كراكلا سنة ٢١٢ وهذا ما زاد في التجانس والترابط بين المواطن والسلطة العليا.

كانت الامبراطورية الرومانية تحرص على جلب ولاء الشعب في مختلف الأقاليم

وبالإضافة إلى كل هذه عناصر الوحدة التي ذكرنا فإنه لم تظهر خلل هذه الفترة ١٣٨-١٩٢م ضغط البرابرة على الحدود و لم يكن عبء الضرائب ثقيلاً على المواطنين كما كان الرخاء المادي عاماً بين الناس مما أدى إلى ارتفاع مستوى حياة الطبقة الوسطى.

كان التسامح يسود الحياة الاجتماعية و لم يظهر الاضطهاد الديني بعد وكانت السطلة ار سمية تسمح باستعمال اللغات المحلية.

تمثال للإمبراطور الروماني كراكلاّ


Encyclopédie Encarta, Bridgeman Art Library, London/New York

٣-عناصر الضعف في الامبراطورية الرومانية:

تغرات داخلية: ظهرت بعض الثغرات الداخلية في الامبراطورية الرومانية وذلك منذ أواخر القرن الثاني الميلادي ويمكن تلخيص ناصر الضعف هذه في المحاور التالية:

- عدم تغلغل تأثير الحضارة الرومانية بصورة منسجمة بين مختلف رعايا الامبراطورية فكان كل فريق من السكان يحافظ على تراثه ولغته وعاداته وكانت قبائل الرعاة في المناطق الشمالية والغربية تعيش مستقلة عن تأثير الغزاة الرومان.

- ساهمت الحروب الأهلية خصوصاً في بالد اليونان وإيطاليا في إنقاص كثافة السكان في الغرب وزيادة احواله سوءاً فضلاً عما ترتب على الأوبئة وسوء الحياة الاقتصادية من إنقاص عدد السكان في هذه المنطقة من أوربا.

- اشتدت في هذا الوقت وطأة الجرمان على الحدود الشمالية والغربية في شرق غالة والأقاليم الواقعة جنوب نهر الدانوب واشتدت الضرائب على الرعايا الرومان الذين لجأ كثير منهم إلى الأمراء الجرمان.

- وفي هذا الوقت كانت بعض الولايات ذات التراث القديم مثل هلنستيا تخلع سلطة الغزاة الرومان وتترقب الفرص للانفصال عن الامبراطورة الرومانية وساع على ذلك نمو الآداب ومحاولات بعث الحضارات الراكدة.

وعلى الرغم من ان ماركوس اوريوس ١٦١-١٨٠م يعد من أنبل الأباطرة بحكم اخلافه وانتمائه إلى مدرسة الرواقيين الفلسفية وبحكم نشاطه وأدبه وعحمسه لحمياة الامبراطورية بالرغم من كل ذلك فإن عهده يمثل نهاية عهد الاستبداد المستنير وبداية تداعي الرخاء الروماني واضمحلال العظمة الرومانية وكذلك كثرة سفك الدماء وبداية تغلغل البرابرة في الأراضي الرومانية وخصوصا على الحدود الشمالية الشرقيةلإيطاليا حتى أن هذا الامبراطور مات في معسكره الحربي على نهر الدانوب وهو يقاتل في دفع البرابرة عن حدود الامبراطورية.

- زادت الأمراض والأوبئة بين المواطنين خصوصا في بلاد اليونان وإيطاليا منذ عام ١٦٦م عقب عودة أفيديوس كاسيوس العسكرية من الشرق وكان فتك هذه الأوبئة بالإيطاليين شديد ولم يعد في إيطاليا ذاتها وروما خصوصاً سوى قليل من السلالات القوية العريقة. وخلال القرن الثالث الميلادي لم يعب المنصب الامبراطوري قاصراً على الرومان وحدهم بل كان كثيرا ما يتولى منصب الامبراطور سوري أو عربي أو إفريقي*

* هذا الامبراطور هو سبتيموس سفروس الذي حكم بين ١٩٣-٢١١م

ثانياً. الأخطار الخارجية: زاد ضغط البرابرة خلال القرن الثالث الميلادي على خطوط الدفاع للامبراطورية الرومانية واغ هذا الضغط قمته عند اقتراب منتصف القرن الثالث إذ قام القوط بنهب بلاد اليونان كما أخضعوا لسلطتهم شبه جزيرة القرم وخربوا بعض المدن الزدهرة على شواطئ البحر الأسود في آسيا الصغرى كما تكونت تحالفات من القبائل الجرمانية كانت تهدف إلى انتزاع الأقاليم الرومانية في أوربا فقد زحف الفرنجة من ألمانيا إلى جوف إسبانيا ونهبوا مدينه تاراجونا بينما أغار السكسون على سواحل بريطانيا وغالة ، وهي فرنسا الحالية تقريباً، ونهبوهما كما عاثت قبائل الأماني فسادا في غالة فأحرقوا وخربوا بعض جهات وادي نهر الرون ووادي نهر البو.

- ظهر خطر الفرس الساسانيين في إيران عام ٢٢٧م في غرب آسيا فقد اجتاحوا بلاد الشام ووصوا إلى بحر إيجه في اليونان ونجح الملك الفارسي شابور في سجن الامبراطور الورماني فليريان وهكذا أصيبت الامبراطورية الومانية بكارثة عظيمة وكان ذلك سنة ٢٦٠م. كما وقعت مدينة إنطاكية العريقة التي كانت معقل السيادة الومانية في الشرق في يد الفرس مرة ثم في يد سبتيميا زنوبيا أميرة تدمر مرة اخرى.ثم إن قيام دولة تدمر داخل كيان الامبراطورية الرومانية يمثل في حد ذاته صورة الضعف والاضمحلال للامبراطورية الرومانية في ذلك الوقت، فقد امتد نفوذ تدمر من خليج العقبة بالأردن جنوبا إلى جبال طوروس شمالاً، وبسطت هيمنتها إلى سوريا والجزيرة بين دجلة والفرات شمالاً وبلاد العرب وهددت مصر وآسيا الصغرى وحافظت على استقلالها حتى أخضعها الامبراطور أورليان ٢٧٠-٢٧٥م.

المحاضـــرة الثالثـــة

بدايات انقسام الامبراطورية الرومانية ٢٨٤-٣٠٥م

تمثـــل الفتـــرة بـــين ٢٧٠-٢٨٤م أي إلى غايـــة تـــولي الامبراطـــور الرومـــاني دقلـــديانوس ســـدة الحكـــم مرحلـــة جـــادة في تـــاريخ الامبراطوريـــة الرومانيـــة وكان الأباطرة خلالها قد حـــاولوا دفـــع الأخطـــرا الـــتي كانـــت تهـــددها في كـــل مرة كما طـــردوا البرابـــرة وراء الحـــدود الرومانيـــة وأعـــادوا موقتـــا الوحـــدة إلى الامبراطورية الرومانيـــة وتوجـــت هـــذه المرحلـــة بتـــولى الامبراطـــور دقلـــديانوس الحكم سنة ٢٨٤م وهـــذا الحـــدث ســـتتراتب عنـــه نتـــائح هامـــة بالنـــسبةلتاريخ الامبراطورية في عصورها المتأخرة.

دقديانوس diaclécien حياته وإنجازاته الحضارية

ينحدر دقلديانوس مـــن أســـرة فقـــيرة في إقلـــيم إليريـــا القديمـــة بالـــسمال الغـــربي لشبه جزيرة البلقان وقـــد انخـــرط في الجـــيش الرومـــاني وشـــغل بعـــض الوظـــائف الصغيرة في غالـــة ثم ارتقـــى إلى حكـــم ماســـيا في البلقـــان ثم إلى رتبـــة القنـــصل ثم إلى قيادة الحـــرس الامبراطـــوري وهـــي وظيفـــة هامـــة ثم مـــا لبـــث أن عـــين قائـــداً علـــى الجيـــوش الـــشرقية والغربيـــة ومـــع أن دقلـــديانوس اشـــتهر بكونـــه رجل دولة وسياسة اكثر مـــن كونـــه رجـــل حـــرب غـــير أن معاصـــريه أعجبـــوا بـــه ورفعـــوه إلى مرتبـــه الأبـــاطرة العظـــام حـــتى اعتـــبره بعـــضهم مؤســـسا لا مبراطوررية جديدة مثله في ذلك مثل اوغسطس.

وقـــد أدرك دقدلـــديانوس بفكـــره الثاقـــب أمـــراض الامبراطوريـــة فحـــاول أن يقضي علـــى الطمـــوح والمنافـــسة في كرســـي العـــرس مـــن طـــرف العـــسكريين فقرر أن يتـــولى بنفـــسه قيـــادة الجـــيش في الحمـــلات الهامـــة وقـــصد بـــذلك أن يحـــرم القـــادة العـــسكريين مـــن تحقيـــق انتـــصارات بـــاهرة تـــريهم بـــالتطلع إلى منـــصب الإمبراطـــور. كمـــا أدرك أن الإشـــراف علـــى شـــؤون الـــدفاع عـــن الامبراطورية مهمـــة ثقيلـــة لا يـــستطيعها رجـــل واحـــد ولهـــذا قـــام دقلـــديانوس بوضع نظام جديد في الحكم خـــالف بـــه نظـــم الامبراطوريـــة منـــذ قيامهـــا أيـــام أوغـــسطس فقـــد قـــسم الامبراطوريـــة إلى قـــسمين كـــبيرين بواســـطة خـــط عمـــودي يمتـــد مـــن الـــشمال إلى الجنـــوب عـــبر البحـــر الأدريـــاتيكي واختـــار زميلاً له ورفيق ســـلاح ليكـــون شـــيكا لـــه في الحكـــم ولكـــن ذلـــك لم يكـــن كافيا للقضاء على الفـــتن وكـــبح جمـــاح القـــادة الطـــامحين في العـــرش. كمـــا أن اتساع الامبراطوريـــة شـــرقاً وغربـــاً وشمـــالاً وجنوبـــاً أدى إلى صـــعوبة الـــتحكم في الأمور وحمايـــة الحـــدود وخـــصوصاص مـــع كثـــرة الولايـــات وثقـــل الإدارة فاضـــطر دقلـــديانوس وزميلـــه إلى الاعتـــراف بقائـــدين آخـــرين كـــإمبراطورين وشريكنين لهما في الحكم ولكـــن كـــلا منـــهما مـــنح لقـــب قيـــصر دلالـــة علـــى أنه أقل شأنا من دقلديانونس وشريكه و لم يكونا سوى مساعدين.

- رأى دقلـــديانوس أن رومـــا لمـــن تعـــد صـــالحة للبقـــاء كعاصـــمة وحيـــدة للامبراطوريـــة فاتخـــذ عاصـــمة جديـــدة في الـــشرق هـــي نيمقوميـــديا علـــى الـــشاطئ الآســـيوي للبوســـفور وذلـــك قبـــل بنـــاء القـــسطنطينية وأقـــام بهـــا وجعلها مركزاً لحكمه وكـــان ذلـــك بـــدافع إدراكـــه بـــأن ميـــزان القـــوى بـــدأ يميـــل لـــصالح الأقـــاليم الآســـيوية والـــشرقية في الإمبراطوريـــة وذلـــك بفـــضل ثرواتها وغناها وقـــوة الكثافـــة الـــسكانية فيهـــا وكـــذا تمركـــز المـــدن الهامـــة في أرجائهـــا ولهـــذا نجـــد أن دقلـــديانوس اســـتأثر لنفـــسه بحكـــم تراقيـــا ومـــصر وأقطار آسيا الغنية.

٢- الإصلاحات الإدارية:

كان دقلديانوس كما ذكرنا رجلاً إدارياً فحاول تأمين مركز الامبراطورية وهو العاصمة ومحاربة الترعة الانفصالية وإصلاح أحوال الشعب وأهم عمل قام به هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وأعاد تتيب الولايات وتنظيمها فقسم الامبراطورية إلى أربعة أقاليم كبرى هي:

ولاية غالة: وتشمل بريطانيا وغالة وإسبانيا والمنطقة المعروفة اليوم باسم المغرب الأقصى.

ولاية إيطاليا: وتشمل المنطقة الواقعة بين نهر الدانوب والبحر الأرياتيكي بالإضافة إلى إيطايا والأقاليم المعروفة الآن بالجزائر وتونس وطرابلس.

ولاية إليريا: وتشمل داشيا ومقدونيا وبلاد اليونان.

ولاية الشرق: وتشمل بقية أقاليم الإمبراطورية وهي تراقيا وآسيا الصغرى والشام ومصر.

ثم انقسمت هذه الولايات إلى وحدات إدارية اصغر وألأصبح الحاكم في كل وحدة إدارية مسؤولاً أمام الحاكم الأعلى وفي النهاية يصبح عدد من الحكام العموميين مسؤولين أمام دقلديانوس نفسه الذي كان له الحق في غزلهم أو تعيينهم٨. وكان هذا الشكل الهرمي للجهاز الإداري في الامبراطورية الرومانية الذي وضعه دقلديانوس يسهل سرعة الإجراءات وكان يضمن الدقة في العمل الإداري ويجعل السلطة تتركز في يد الامبراطور في نهاية الأمر وفي ذلك ضمان لهيمنته على شؤون البلاد والقضاء على عوامل الفرقة والانقسام.

٣- الإصلاحات الإدارية:

قام دقلديانوس بإنشاء قوة عسكرية متنقلة لحماية حدود المملكة أي الليمس وأطرافها من هجمات البرابرة وكان لهذه القوة أثر فعال في رد الاعتداءات وإضافة إلى هذه القوة المتحركة كان هناك جيش أخر

---

[8] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص.٤٤

يتكون من فرق مرابطة على حدود الدولة*. واهتم دقلديانوس أيضاً بأمن الطرق الرومانية وحراستها. ومما يذكر أيضاً بشأن إصلاحات دقلديانوس العسكرية أنه قام بإدخال أعداد هائلة من الجرمان والبرابرة في الجيش حتى يذكر أن معظم فرق الخيالة كانت من الجرمان وكلفت قوات جرمانية مرتزقة بالدفاع عن الحدود بإشراف قيادات رومانية ودخل الجرمان أيضاً في الحرس الإمبراطوري وتدرجوا في وظائفه حتى وصلوا مراتب القيادة خصوصاً وأن الامبراطور لم يشترط للوصول إلى القيادة سوى الشجاعة والحنكة في القتال والإخلاص للإمبراطور.

ورغم أن دخول العنصر الجرماني في الجيش الروماني وتولي كثير من عناصره لمراكز القيادة سيؤدي مؤقتاً وفي مرحلة قوة الإمبراطورية إلى نوع من الأمن والاستقرار إلا أن هذا التواجد الجرماني في مراكز القيادة سيؤدي بعد ضعف الإمبراطورية إلى نتائج وخيمة على مستقبل الإمبراطورية.

الإصلاحات المالية: حاول دقلديانوس إصلاح النواحي المالية والاقتصادية وأول عمل بدأ به هو سك العملة الجديدة التي تالت ثقة التجار والأهلي الرومان كما اهتم بحماية الفقراء من جشع المستغلين وثبت أسعار السلع الأساسية وحدد الأجور والمرتبات منعا للاستغلال كما حاول التخفيف من عبء الضرائب وقام بعملية مسح للأراضي الزراعية وحصرها وتقدير الضرائب عليها بطريقة عادلة.

الجانب الروحي والديني في الإمبراطورية الرومانية

---

*يذكر أن عدد هذه الفرق المرابطة بلغ في عهد دقلديانوس مائتين وخمسين ٢٥٠ ألفاً من المشاة و إحدى عشرة ١١ ألغاً من الخيالة أو الفرسان هذا إضافة إلى الرحس الجمهوري المكلف بحماية الإمبرطور نفسه.

١- مكانة الفلسفة: كان هناك فراغ روحي كبير بين أصحاب الفكر وذوي العقول المستنيرة وذلك بعد فشل عبادة الإمبراطور والوثنية في إشباع نهمهم الروحي وهذا ما أدى إلى اتجاه الناس نحو الفلسفة وهكذا صار للفيلسوف في القرن الثاني الميلادي مترلة سامية بين الناس باعتباره ناصحا روحيا وشافيا للآلام النفسية، وصارت مهمته تشبه مهمة رجال الدين. وقد تمسكت الطبقات العليا المثقفة بالرواقية stoicism وذلك بما تنطوي عليه من الأخلاق والإيمان بكل الآلهة كما اعتقدت في وجوب اتخاذ التصوف الأفلاطوني وكذلك الأفلاطونية الحديثة والغنوصية.

٢- الديانات الشرقية: اتجه العالم الروماني باهتمام متزايد نحو عبادات الشرق المتدفقة بالحيوية مثل عبادة إيزيس من مصر وعبادة إله السماء وإله الشمس من سوريا وعبادة متراس إله الشمس المحارب ومخلص الإنسان من فارس بل إن الإمبراطور ماركوس أورليوس سيد معبدا للإله الفارسي ميتراس وقرر الإمبراطور أورليان جعل عبادة الشمس ديناً رسمياً للدولة ولكن هذه العقائد لم يكتب لها البقاء طويلاً.

٣- الديانة المسيحية: ووسط هذه الفوضى الدينية بدأت المسيحية تظهر وتتفوق، ففي عهد الإمبراطور أورليان كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في الشرق ورسخت جذورها في إيطاليا وتغلغلت في روما نفسها حتى صارت خطراً كبيراً على الديانة الرسمية للدلوة وهي عبادة الإمبراطور وعبادة الشمس وخصوصاً بعد اعتناق عدد من أفراد الجيش للمسيحية، وهذا ما أدى بالدولة إلى كراهية المسيحيين وإلى إقدام السلطات الحاكمة على اضطهادهم مثلما حدث على عهد كل من

الإمبراطور دكيوس٢٤٩-٢٥١م والإمبراطور فاليريان ٢٥٣-٢٦٠م حين تعرض المسيحيون لأشد أنواع الاضطهاد٩. وفي نفس هذا الإطار كره دقلديانوس المسيحية التي ظهرت في أوربا كعقيدة جديدة ونظام وافد من الشرق خصوصا وأن هذه الديانة بدأت تدعو أتباعها إلى عبادة إله غير الإمبراطور ثم ازداد سخطه عليها حين بدأت تظهر تطرفا وبدأت تخير أتباعها بين الإخلاص للمسيح أو الإخلاص للإمبراطور وخصوصاً حين تعدى نطاق تأثيرها في المجتمع إلى التأثير في الجيش، وحين قضت على ولاء الجند للإمبراطور وصارت عبارة عن دولة داخل الدولة وشكلت جماعات سرية لا تقيم وزناً لنظام الدولة وتقاليدها.

ويذكر أن المسيحية كعقيدة تسربت إلى أفراد من البلاط الإمبراطوري وإلى بعض أفراد أسرة دقلديانوس نفسه وهذا ما جعل الإمبراطور يشرع في اضطهاد عنيف للمسيحية وأتباعها قبل سنوات قليلة من اعتزاله للحكم. ففي سنة ٣٠٢م بدأت حركة اضطهاد كبيرة للمسيحيين جرى بمقتضاها طردهم من البلاط ومن صفوف الجيش ونفيهم إلى جهات نائية وحرمانهم من حقوق المواطنة ومنعهم من تولى الوظائف الإدارية وحرق كتبهم المقدسة وهدم كنائسهم وإصدار قرار يحرم عتق الأرقاء منهم وتبع ذلك حركة تعذيب عنيفة في سنة ٣٠٤م جرى فيها إعدام كثير من المسيحيين وإذاقتهم ألواناً من العذاب الأمر الذي أدى بكثير منهم إلى التخلي عن عقيدتهم. وهكذا كانت السنوات الأخيرة من حكم دقلديانوس فترة محنة كبيرة للمسيحيين وقد حدث مثل ذلك في شمال إفريقيا أيضاً حيث عرف الأهالي محاكمات وعمليات تعذيب وحرق مؤلمة١٠.

ولكن القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية هو الذي عانى القسط الأكبر من الاضطهاد الديني وذلك بحكم تركز المسيحيين في الشرق مهد

---

[9] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ص.٢٢-٢٨

[10] ينظر: شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج.١، ترجمة: محمد مزالي وآخر، الدار التونسية للنشر، تونس، ص.

المسيحية الأول. غير أن هذه الحركة العنيفة من الاضطهاد لم تلبث أن خفت حدتها عندما قرر دقلديانوس اعتزال السلطة سنة ٣٠٥م بعد أن صار شيخاً ولازمه المرض المزمن، وبعد أن أكمل عشرين عاماً على رأس الإمبراطورية، وكذلك بوفاة جاليروس عدو المسيحية اللدود سنة ٣١١م.

وإذا كان مسلك دقلديانوس تجاه المسيحية قد اتسم بقدر كبير من العنف والقسوة فإن ذلك قد أدى إلى انقلاب خطير في الحياة الدينية للأمبراطورية ووضعها على أعتاب مرحلة جديدة على عهد خليفته قسطنطين الذي جعل الإمبراطورية حصنا للمسيحية وملاذا لأتباعها والذي ترأس أول مجمع ديني مسكوني في تاريخ المسيحية وتبنى وجهة نظر رجال الكنيسة وجعل من المسيحية الوجه اللامع للحقبة الجديدة في بيزنطة.

المحاضرة الرابعة

غزوات الجرمان

يؤكد المؤرخون علي حقيقة مفادها أن هناك ثلاثة عوامل سيطرت على مصير التاريخ الأوربي حتى نهاية القرن الثالث الميلادي وهي: الحضارة اليونانية والامبراطورية الرومانية والديانة المسيحية. ولكن تغلغل الجرمان في جوف الامبراطورية الرومانية غير مجرى التاريخ الأوربي الوسيط جذرياً.

الكلت:

سبق للامبراطورية الرومانية أن تعرضت لغزوات شرسة من طرف البرابرة ومن بينهم الكلت Les Celtes الذين هم أحد عناصر الجنس الهندو-أوربي الذين نفدوا إلى أوربا في هجرقم نحو الغرب منذ أزمنة سحيقة. وكاوا في البداية قد نزلوا في الغابات الواقعة في شمال أوربا والجهات المعروفة الآن بجنوب ألمانيا ووديان أعالي الدانوب وأواسط الراين حتى نهر الألب شرقاً، غير أنهم اضطروا تحت ضغط الجرمان من الشمال إلى ترك مواقعهم في هذه المناطق والانتشار جهة الجنوب الغربي والجنوب الشرقي وذلك منذ أوائل القرن الرابع الميلادي فترلوا في غالة أي فرنسا الحالية والجزر البريطانية بل اضطروا إلى الرحيل إلى إيطاليا ذاتها بلاد اليونان وآسيا الصغرى فصاروا بذلك منتشرين في منطقة واسعة تمتد بين شواطئ البحر الأسود والمحيذ الأطلسي.

ولكن يذكر المؤرخون أن الكلت ما لبثوا أن ذابوا وسط محيط العالم الروماني وفقدوا كثيرا من مقوماتهم الشخصية بل يذكر أنهم اصطبغوا بالصبغة الرومانية واعتنقوا المسيحية وصاروا من صمن الرعايا الرومان رغم أنه قد ظلت بعض صفاتهم المميزة ومقوماتهم اشخصية في الجزر البريطانية وأيرلندا بالنظر إلى تطرق موقعها وبعدها النسبي عن ائرة التأثير الروماني المحض[11]. ولكن يذكر الدكتور نعيم فرح أنه بعد أن احتل الرومان إنجلترا تأثر الكلت بالحضارة الرومانية وسلكوا مسارها ولكن هذا الرأي لا ينفي أن الكلت حافظوا في هذه المنطقة بالذات على بعض من خصائصهم التي تميزوا بها منذ القرن الأول الميلادي كنظام الطبقية والنمط الزراعي[12].

الجرمان: أصلهم من الجنس الآري الذين سكنوا آسيا الوسطى قديما ويذكر أن الغاليين Gaulois هم الذين أطلقوا عليهم تسمية الجرمان

---

[11] م.م. مرسي الشيخ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٥، ص ص.٧٣-٧٤

[12] نعيم فرح، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دمشق ١٩٨٧، ص.١٧

ويعنون بها جيران لأن الجرمان كانوا يتمركزون وراء نهر الراين١٣. وقد تحدث عنهم يوليوس قيصر وقال أنهم كانوا يسكنون حول بحر البطيق وذكر فرقا منهم وهم القوط الرغبيون والقوط الشرقيون والوندال والآلان والفرنجة واللومبارديين والأنجلوساكسون والأمان والنورمانديون ثم زحفوا تدريجيا واستقروا على حدود الامبراطورية الرومانية١٤. وقد وصف يوليوس قيصر في القرن الأول قبل الميلاد كثيرا عن حملاته في غالة وأكثر من وصف الجرما وذلك في المذكرات الواردة في كتابه De bello Gallico ١٥. ومما ورد في كتابات تاكيتوس في أوائل القرن الثاني الميلادي تتضح صورة الحياة التي كانت تحياها العناصر من البرابرة وطرق معيشتها وأساليبها في الحياة العامة وحياتها الحربية. فتشير الروايات إلى أنهم قوم من البدو الرحل يعشقون الحرب ولهم شغف كبير بالصيد ولا يميلون كثيرا إلى امتهان الزراعة وكانت لهم فضائل كثيرة أهمها كرم الضيافة واحترام العهد والشجاعة الفائقة والنظافة والعفة. وكانوا يتخذون من جلود حيوان الرنة لباسا يغطي جانبا ضئيلا من أجسادهم. ويذكر أنهم كانوا يستحمون ذكوراً وإناثا في الأنهار، وغذاؤهم اللحم واللبن والجبن وكاوا يتجولون باستمرار خلال الغابات الكثيفة والمستنقعات وكاوا دوما يرتحلون من مكان إلى آخر ولم يكن لهم ذخل إلا ما كانوا يحصلون عليه بواسطة الحرب والقتال١٦. أما بلادهم جرمانيا فقد وصفها تاكيتوس بكونها منطقة تحوطها الغابات الكثيفة وتغطيها المستنقعات وانعكست طبيعة هذه البلاد على سكانها من الجرمان وخصوصا في طبائعهم وميلهم إلى

[1313] **نهر الراين**: يعد من الأنهار الداخلية في أوربا يبلغ طوله ١٣٢٠كلم ويقطع مسافة تقدر ٢٤٤٦٠٠ كلم وينبع من شرقي سويسرا ويشكل جزءا من حدود سويسرا والنمسا وفرنسا وألمانيا، ويعبر ألمانيا وهولندا باتجاه بحر الشمال.

ينظر: نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوربا، ج.١، دار الفكر، دمشق١٩٨٢، ص.١٦

[14] نعيم فرح، المرجع السابق، ص.٢٠

[15] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص.٢٠

Tacitus, Germanic institutions, MED. WORLD, pp.48-60 [16]

الغلظة. وكـــان الجرمـــان ذوي أجـــسام فارعـــة وبـــشرة ناصـــعة البيـــاظ وعيـــون حـــادة زرق وشـــعر أشـــقر مرســـل وكـــانوا يـــشربون الخمـــر حـــتى الثمالـــة ويعـــشقون الـــشجار والمقـــامرة وكـــذلك العنـــاء ويخلـــصون إخلاصـــا شـــديدا لشيخ العشيرة وكانت لهـــم شـــهوة جامحـــة نحـــو المغـــامرات الحربيـــة.ومـــن أهـــم مميـــزاقم الاجتماعيـــة احتـــرامهم لربـــاط الأســـرة القـــوي ورعايتـــهم للمـــرأة وكرههم لتعـــدد الزوجـــات وحبـــهم للإكثـــار مـــن الدريـــة فـــضلاً عـــن تمتـــع الأب بسلطة تامة علـــى زوجتـــه وأولاده وهـــذه الـــصفات لم تـــتغير حـــتى بعـــد اخـــتلاطهم بالرومـــان. وكـــان للجرمـــان عـــادة الإكثـــار مـــن الأولاد في الأســـرة الواجـــدة وهـــذا مـــا لأدى إلى تفـــوقهم علـــى الرومـــان تفوقـــا عـــدديا حاسمـــا حـــين انـــدلعت الحـــروب بـــين الفـــريقين واشـــتد القتـــال. وكانـــت العـــشيرة تتـــألف مـــن مجموعـــة مـــن الأســـرات ذات القرابـــة، وتمتـــع رئـــيس العـــشيرة بمكانـــة ممتـــازة وســـلطة تكـــاد تكـــون مطلقـــة وحـــصل مـــن رفاقـــه المحاربين على يمين الـــولاء وعهـــد بالـــدفاع عنـــه وحمايتـــه وكـــان هـــو بـــدوره يبالغ في إظهار كرمـــه وســـخائه نحـــو رفاقـــه. ومـــن مجموعـــة العـــشائر المختلفـــة كانـــت تتـــألف القبيلـــة الكـــبرى أو الفـــرع الجرمـــاني الكـــبير١٧. وعـــرف الجرمان نظام الطبقـــات حيـــث كـــان هنـــاك ثلاثـــة طبقـــات اجتماعيـــة: طبقـــة النبلاء وطبقة الأحـــرار وطبقـــة العبيـــد.فبينمـــا كـــان العبيـــد يقومـــون بأعمـــال الفلاحـــة وزراعـــة الأرض وغيرهـــا مـــن الأعمـــال اليوميـــة اقتـــصر دور النـــبلاء وهـــم صـــفوة المجتمـــع الجرمـــاني علـــى بممارســـة الحـــرب والتمتـــع بـــشرف الانتـــساب للفئـــة المميـــزة في المجتمـــع وهـــي فئـــة المحـــاربين ولم بحتـــل الأحـــرار الحرمان مترلة هامة في هـــذا المجتمـــع فلـــم يزيـــدوا كـــثيرا عـــن طبقـــة الفـــالحين من العبيد وإنتميـــزا عنـــهم بملكيتـــهم قطعـــا صـــغيرة مـــن الأرض لأن الحريـــة في المجتمع الحرمان ارتبطت إلى حد كبير بملكية الأرض.

---

[17] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ص.٧٨-٧٩

وكانت حياة القبائل الجرمانية حافلة بالحروب فيما بينها، حتى يذكر أن الجرمان صارروا جموعا من القبائل والعشائر المتناحرة فيما بينها كما أن نظرتهم لجارتهم الامبراطورية الرومانية اختلفت من طرف إلى آخر، فنظر إليها بعضهم على أنها عدو تجب محاربته في حين نظر إليها البعض الآخر على أنها موطن يرجى استيطانه ومصدر للرزق يمكن الإفادة منه ببذل الخدمة العسكرية[18].

اصطدامهم بالرومان: اصطدمت الامبراطورية الرومانية بمجموعتين كبيرتين انقسم إليها الجرمان بعد انسحابهم من شبه جزيرة اسكندناوه إلى جوف القارة الأوربية وقد ضمت مجموعة الجرمان الغربيين كلا من الفرنجة الإنجليز والسكسون والسويفيين والألماني وضمت مجموعة الجرمان الشرقيين القوط والوندال والجبيداي والبرجنديين واللمبارديين والروجيين وغيرهم..وفي حين بقي فريق من الجرمان في شبه جزيرة اسكندناوة جيث تفرعت الأمم السويدية النرويجية الدانية الحالية وصل فريق في رحلته جنوباً بالغرب عبر ألمانيا سعياً وراء العيش والجو الدافئ أو حبا في المغامرة والحرب إلى حوض نهر الراين في حين اتجه فريق ثالث وجهة شرقية فوصل إلى ضفاف نهر الدانوب[19] وسواحل البحر الأسود.وهذان التياران من تيارات الهجرة الجرمانية هما اللذان اصطدمت بهما الامبراطورية الرومانية.

أسباب الصدام: من بين الأسباب التي دغعت الجرمان إلى التحرك إلى تخوم الامبراطورية الرومانية يذكر مرسي الشيخ: الرغبة في الاستفادة من مظاهر الحضارة الرومانية جرياً على قاعدة ابن خلدون الشهيرة: المغلوب مولع باتباع الغالب في مأكله ومشربه وسائر عاداته[20] وكذلك

---

[18] نفسه، س.٨٢.

[19] **الدانوب**: ثاني أطول أنها رأوربا بعد نهر الفولجا يجري الدانوب على طول ٤٨٦٠ كلم من منبعه بألمانيا إلى مصبه في البحر الأسود في أوربا الشرقية وتبلغ مساحته نحو ٨١٥٨٠٠لكم.

[20] ابن خلدون، المقدمة، ص.

طمعاً في السيطرة على ثروات الأراضي الرومانية وخصبها وكذلك التغيرات التي حدثت في المنطقة من حولهم وأسهمت في دفعهم إلى جوف الامبراطورية الرومانية وذلك منذ أواخر القرن الثاني الميلادي،ومن بين هذه التغيرات جوانب اقتصادية تتمثل في ضيق سبل العيش في بلادهم نظراً لتزايد أعدادهم وفقر أراضيهم وكونها عبارة عن مساحات شاسعة من الغابات والمستنقعات هذا إضافة إلى تعرضهم لكوراث الطبيعة من جفاف ومجاعات وفيضانات وحرائق في الغابات وصواعق. وهناك جانب آخر من هذه التغيرات له طابع عرقي ويتمثل فيما حدث من ضغط قبائل أخرى على الجرمان كالصقالبة والسلاف من جهة الشرق حملتهم على التحرك والزحف باتجاه مواطن أخرى عبر نهري الراين والدانوب ويتطلعون في حسد إلى الأراضي الخصبة والمدن العامرة على الضفة الأخرى للنهرين الكبيرين[21]. غير أن تحرك فريق من الجرمان الشرقيين وهم القوط وزجفهم إلى داخل الامبراطورية الرومانية كان نتيجة لتحرك شعب آسيوي آخر أشد ضرواة وأكثر وحشية وهم الهون[22]. حيث هزموا القوط الشرقيين وراحوا يدفعونهم وغيرهم من الجرمان إلى داخل الإمبراطورية الرومانية. بدأت العلاقات بين الجرمان والإمبراطورية الرومانية بمرحلة من السلم والتعاون بين الجانبين استغرقت حوالي قرنين من الزمان أي إلى نهاية القرن الثاني الميلادي وبالتحديد نهاية عهد الامبراطور ماركوس أورليوس سنة ١٨٠م.ولكن الأمور أخذت في التبدل باتجاه العداوة ابتداء من أواخر القرن الثاني حين عاثت قبائل الجرمان فساداً في حوض نهر الدانوب وأخذت هجماتهم في هذه المرحلة طابع الهجمات المتفرقة والعمليات الحربية غير المنظمة وغير الشاملة. وقد تنازلت الامبراطورية الرومانية للقوط عن إقليم داشيا

---

[21] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ص.٨٣-٨٤

[22] **الهون**: هم قبائل تركية مغولية تحركوا في القرن الرابع الميلادي من منغوليا نحو الغرب فخضعت لهم عدة قبائل منها: الآلان والقوط الشرقيون وغيرهم من البرابرة..

بالبلقان وذلك لتأخير تغلغلهم في أراضيها. وفي أواخر القرن الرابع الميلادي توجهت الامبراطورية الرومانية للإفادة من هذه العناصر المتحمسة الوافرة النشاط وعملت على استخدامهم كجند مرتزقة في الجيوش الرومانية وهكذا صار كثير من القادة العسكريين في الجيش الروماني تجري في عروقهم دماء جرمانية وخصوصا بعد أن صار التزاوج بين الجانبين أمراً مألوفا في القرنين الثالث والرابع الميلاديين

الهجمات المنظمة: تميزت هجمات الجرمان أواخر القرن الرابع الميلادي بطابع الهجمات المنظمة والهجرات الجماعية الكبيرة وانتهي الأمر إلى استقرار الجرمان الدائم داخل حدود الامبراطورية الرومانية وتأسيس ممالك جرمانية معروفة ظلت قائمة فترات طويلة لتصبح أحد العناصر الهامة والمؤثرة في التاريخ الأوربي الوسيط. وقد استقر القوط الغربيون في إقليم داشيا من بلاد البلقان الذي تنازلت عنه الامبراطورية الرومانية مرغمة وذلك نحو قرن من الزمان بين ٢٧٥-٣٧٥م وذلك قبل أن يعبروا إلى داخل الامبراطورية الرومانية ويقيموا ممالك مستقرة ويقوضوا نفوذ الحكومة الغربية وسلطانها. وبعد دخول الهون إلى داشيا سنة ٣٧٦م وهزيمتهم لعشائر القوط الغربيين وإجلائهم عن هذه المنطقة من البلقان توسل القوط الغربيون إلى الإمبراطور فالنز Valens ٣٦٤-٣٧٨م أن يهبهم ملجأ يحتمون به من خطر الهون فسمح لهم هذا الإمبراطور بعبور نهر الدانوب والالتجاء إلى الأراضي المهملة في تراقيا ومحاولة استصلاحها ويبدو أن هذا الإمبراطور كان يهدف إلى الاستفادة من قبائل القوط الغربيين خصوصاً وأن القوط الغربيين اعتنقوا المسيحية وتأثروا بالحضارة الرومانية. ولكن هذا التصرف من الإمبراطور فالنز كانت له انعكاسات سيئة على أمن الإمبراطورية الرومانية، إذ لم يقنع القوط الغربيون أن يكونوا مجرد مواطنين خصوصاً وأنهم لا زالوا يحافظون على طابعهم القبلي فأخذوا يفرضون سلطتهم على السكان

المجاورين وبدأوا يستولون لحسابهم الخاص على كل المنطقة إلى غاية نهر الدانوب وأعلنوا الثورة على الإمبراطور فالتر وهزموه في موقعة أدرنة سنة ٣٧٨م ولقي حتفه على أيديهم وبهذا النصر الكبير بدأوا مرحلة هامة في علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية. وانتهز القوط الغربيون فرصة ضعف الإمبراطورية الرومانية بعد ثيودسيوس العظيم الذي عرف كيف يحقق فترة من السلم معهم دامت ثلاثة عشر سنة- وخصوصاً بعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى قسمين: شرقي وعاصمته القسطنطينية وغربي وعاصمته رافنا Ravenna٢٣ الأمر الذي أدى إلى تفتت وحدة الإمبراطورية وضعفها. وقد بادر القوط الغربيون بانتخاب ملك عسكري عليهم في سن الثلاثين ممتلئاً بالحماسة والجسارة وهو ألاريك الذي قاد عشائره من القوط الغربيين وهجم أثينا وتساليا واستولى على كورنثة وإسبرطة في بلاد اليونان وبدأ يعد العدة لغزو إيطاليا وتعرضت هذه الأخيرة لحصار القوط الغربيين ثلاث مرات حتى اضطرت في النهاية لفتح أبوابها لهم سنة ٤١٠م فاستباحتها جيوش ألاريك وعاثت فيها فساداً، وفكر هذا القائد الفذ في غزو إقليم شمال إفريقيا الذي كان يمد روما بالغلال وسار بقومه نحو جنوب إيطاليا لعبور البحر المتوسط ولك الموت عاجله إذ توفي في نفس العام. وعملت الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك على صرف الغزاة عن إيطاليا بمنحهم إقليماً آخر ووافق على ذلك القوط الغربيون لأنه لم يكن في خططهم ولا من مصلحتهم القضاء على الإمبراطورية الرومانية فمنحهم الامبراطور هونريوس إقليم لاكتين L'Aquitaine في جنوب غرب غالة في المنطقة الممتدة من نهر اللوار حتى حدود جبال البرانس Les Pérénés وكانت جموع الوندال والآلان والسويفيين قد غزوا غالة قبل ذلك فأرادت الامبراطورية الرومانية أن تضرب عصفورين بحجر واحد: إبعاد القوط الغربيين عن

[23] تزعزع في هذه المرحلة المركز السياسي لروما فلم تعد هي العاصمة السياسية للامبراطورية لم تعد حصنا للمسيحية.

إيطاليا ودفع الجماعات الأخرى وهي أكثر بربرية من القوط الغربيين عن غالة. و لم تمض سوى عدة سنوات حتى كان القوط الغربيون قد استقروا في المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والجارون ومن بينها تولوز وبوردو وبواتييه وذلك قبل لأن يخرجوا جموع السويفيين والوندال عن إسبانيا ويقيموا بها مملكة مستقرة ظلت قائمة لفترة طويلة[24].

غزو الجرمان إفريقيا الشمالية: اضطر الوندال وهم فرع من الجرمان الشرقيين إلى ترك إسبانيا والتروح إلى شمال إفريقيا عبر البحر المتوسط سنة ٤٢٩م تحت قيادة ملكهم جنسريق، وكان ذلك كما ذكرنا آنفاً تحت ضغط القوط الغربيين. وقد تم استيلاء الوندال على نوميديا وما يليها غرباً واتخذوا من بونة عاصمة مملكتهم واستغلوا في ذلك ضعف روما وتمزقها وكذلك اشتغال الرومان بحرب القوط. فلم يهمل جنسريق هذه الفرصة وذهب إلى قرطاجنة ففتحها من غير عناء واستولى على البروقنصلية وتم له بذلك الاستيلاء على تونس والجزائر ومراكش وذلك سنة ٤٣٩م. وقد أقام جنسريق في إفريقيا دولة عظيمة حسب التقاليد الجرمانية التي لم يتردد في إدخال تغييرات عليها كلما اقتضى الأمر ذلك ولقد استقام لملك الونذال والآلان منذ سنة ٤٤٢م ملك مطلق. ويرى مبارك الميلي أن سرعة احتلال الوندال للغرب هو مساعدة البربر لهم والسبب في ذلك- يقول الميلي- أنهم كانوا ينفرون من سلطة روما ويعشقون الاستقلال. ونظراً لكون الوندال أمة حربية متعصبة لمنهجه فإن أعمالهم كانت منحصرة في تخريب حصون الرومان وامتلاك ما كانواأخذوه عن البربر من أراض واضطهاد الأرثوذكس الرومانيي الترعة. غير أنه من الممكن القول أنه كانت للوندال نواح إيجابية بالنسبة إلى البربر وذلك من ناحيتين: من الناحية الاقتصادية أنه لم مكن كثيراً من الطبقات البربرية الفقيرة من عمال الأرض الأجراء والقبائل المطاردة

[24] م.م. الشيخ، المرجع السابق، ص ص.٩٢-٩٦

من استرداد أراضـــيها الزراعيـــة الـــتي صـــادرها الرومـــان. أمـــا الجانـــب الثقـــافي فقد قـــضوا علـــى الطبقـــة الرومانيـــة والمترومنـــة وبالتـــالي فقـــد حـــد وجـــودهم ولو جزئياً من انتشار اللغـــة اللاتينيـــة والثقافـــة الرومانيـــة.وقـــد قـــضى الونـــدال فترة احتلالهم لشمال إفريقيـــا في سلـــسلة مـــن الحـــروب والثـــورات مـــع البربـــر وكان مصير الجيش الونـــدالي هزيمـــة ســـاحقة ســـنة ٥٢٣م وطـــردوا مـــن شمـــال إفريقيا رغم احتلالهم الـــذي دام حـــوالي قـــرن مـــن الزمـــان فقـــد ســـقط حكـــم الونـــدال بـــدخول القائـــد البيزنطـــي بليزاريـــوس إلى قرطاجنـــة وهزيمتـــه للامبراطور الوندالي جليمار سنة ٥٣٤م[25].

البرجنديون: وهم فـــرع آخـــر مـــن فـــروع الجرمـــان الـــشرقيين، ظهـــروا علـــى مسرح الأحداث في القـــرن الثالـــث المـــيلادي وتقـــدموا مـــن موطنـــهم الأصـــلي في وادي المـــاين في الجـــزء الأوســـط مـــن حـــوض نهـــر الـــراين، وقـــرب أوار القرن الرابـــع الميلادجـــي تحركـــت جمـــوعهم إلى الجـــزء المعـــروف حاليـــاً باســـم بلجيكـــا ولكنـــهم اضـــطروا تحـــت ضـــغط الهـــون إلى شـــق طـــريقهم في غالـــة بشيء من العنف حـــتى اســـتقروا في ســـافوي قـــرب نهـــر الـــساوون ســـنة ٤٤٣م وكـــان ذلـــك بموافقـــة الحكومـــة الرومانيـــة فـــشكلوا بـــذلك مملكـــة أريوســـية مستقلة أخذت تتوسع حـــتى كـــادت تبلـــغ شـــاطئ البحـــر المتوســـط وصـــارت تشمل في سنة ٤٩٨م كـــل المنطقـــة الواقعـــة بـــين جبـــال الألـــب ونهـــر الـــرون ولكنها لم تـــستطع أن تـــصمد أمـــام الفرنجـــة الـــذين وصـــلوا إلى غالـــة وأوقفـــوا توسعات البرجنديين في هذه الجهات[26] .

الهون: وهم كما سبق أن ذكرنـــا عنـــصر آســـيوي مـــن جـــنس المغـــول وكـــانوا قد نفذوا إلى جنوب شـــرق أوربـــا قـــادمين مـــن أواســـط آســـيا عـــبر الـــبراري والـــسهوب الآســـيوية في أواخـــر القـــرن الرابـــع المـــيلادي. والهـــون هـــم أكثـــر بربرية من العناصر الـــسابقة وكـــانوا كلمـــا مـــروا بـــبلاد خربوهـــا. وقـــد ظـــل الهون يقيمون على شـــواطئ البحـــر الأســـود في المنطقـــة المعروفـــة حاليـــاً بـــالمجر

---

[25] ينظر: الطاهر عمري، دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار، أرشيف ولاية قسنطينة١٩٩٩م

[26] م.م. الشيخ، المرجع السابق، ص.١٠٠

منذ أواخر القرن الرابع حتى سنة ٤٢٥م حين أخذوا يزحفون نحو البلقان. وحين تولى أتيلاّ حكم الهون سنة ٤٣٣م بدأت مرحلة هامة في تاريخهم إذ سيطروا على معظم القبائل الجرمانية وغير الجرمانية المقيمة في حوض نهر الدانوب وكان فيهم القوط الشرقيون والصقالبة في جنوب روسيا. وحين قررت الإمبراطورية الرومانية وقف دفع الإتاوات الباهضة لأتيلا قرر هذا الأخير الزحف غرباً للاستيلاء على الجزء الغربي من الإمبراطورية نظراً لضعفها وعبث الجرمان فيها فعبر نهر الراين إلى غالة سنة ٤٥١م ونهب مدنها الكبيرة وقد تحالف إتوسيوس قائد الإمبراطورية الغربية مع القوط الغربيين الذين كانوا أعداءه قبل ذلك لصد هذا الخطر المشترك وكان لهم النصر على الهون في نهاية الأمر. وهكذا فإن هزيمة الهون في غالة سنة ٤٥١م وتراجعهم عنها كان أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لغرب أوربا قاطبة إذ قدر لها أن تنجو من وحشية هذا الشعب الذي تراجع إلى روما وعاث فيها فساداً سنة ٤٥٢م وذلك قبل لأن ينسحب منها بسبب الأمراض ونقص المؤونة والخوف من انتقام الجيش الروماني.

أتيلا قائد



الهون

1Figure

سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب: وصلت الإمبراطورية الرومانية إلى مستوى خطير من الضعف والاضمحلال خصوصاً بعد وفاة فالنسيان الثالث سنة ٤٥٥م، وخصوصاً بعد أن عاث فيها الجرمان

فساداً بل إنهم أقاموا بها دويلات مستقلة داخل حدودها الرسمية وخصوصاً بعد أن سيطر على مصائرها قادة عسكريون تجري في عروقهم الدماء الجرمانية و لم يكن لهم أي اهتمام بالمحافظة على أمجاد روما وضمان سلامتها وأمنها[27]. وقد ظهر قائد شهير من الجرمان الشرقيين وهو إدواكر Odovacer قائد الإمبراطور الروماني الصغير روميلوس أوغسطولوس الذي أدرك سنة ٤٧٦م أن لديه من القوة ما يمكنه من خلع الإمبراطور الغربي وإدارة شؤون إيطاليا وقد سلك طريقاً ديبلوماسية للوصول إلى هدفه إذ أعلن ولاءه للأمبراطورية الشرقية وارتبط بالتبعية لها وحصل من مجلس السيناتو عل موافقة شكلية فاتصل بالإمبراطور زينون لطلب تفويض بحكم إيطاليا في ظل التبعية للقسطنطينية وخلع الإمبراطور الغربي. ورحب الإمبراطور زينون بعودة إيطاليا وما بقي لها من نفوذ إسمي في الغرب إلى حظيرة الإمبراطورية الشرقية وهو الأمر الذي شجع أدواكر وخلع آخر الأباطرة الرومان في الغرب سنة ٤٧٦م ونفاه إلى جنوب إيطاليا وإنفرد بتسيير دفة الحكم في إيطاليا ووضع نهاية لمجد الإمبراطورية الرومانية في الغرب وظل غرب أوربا دون إمبراطور حتى تتوج شارلمان سنة ٨٠٠م. ويذكر المؤرخون أن هذا الحدث المتمثل في سقوط عاصمة الإمبراطورية الرومانية في الغرب صار حدا فاصلاً بين العصور القديمة والعصور الوسطى كما كانت له آثار سلبية بالنسبة لممالك الجرمان بغرب أوربا إذ ساعد على تطوير هذه الممالك واستقلالها وتحررها من أية ضوابط. وكان لهذا الحدث أثر ثالث تمثل في كونه عمل على تطوير البابوية في إيطاليا بعد أن أفسحت لها السلطة الرسمية المجال وذلك للحصول على ولاء الإيطاليين والالتفاف حول البابا وتفويضه الزعامة في غياب الإمبراطور

---

[27] تذكر بعض المصادر أن الامبراطورية الرومانية تنبهت إلى خطر هؤلاء القادة ذوي الأصول الجرمانية فأعدمت بعضهم.إذ أعدم الامبراطور **فالنسيان الثالث** قبل وفاته بعامين القائد الشهير **إيثيوس** سنة ٤٥٣م حين تطلع هذا الأخير إلى السيطرة على الإمبراطورية الغربية.

وصار الشعب الإيطالي ينظر إلى الكنيسة في روما على أنها الحصن الثاني للدفاع عن إيطاليا واستعادة مجدها وكان لذلك دون شك أبلغ النتائج بالنسبة لغرب أوربا بصفة عامة وتاريخ البابوية بصفة خاصة[28].

القوط الشرقيون وإيطاليا: ينتمي القوط الشرقيون إلى فروع الجرمان الشرقيين وكاوا قرب منتصف القرن الرابع قد تركزوا بالجهات الواقعة في شمال البحر الأسود، لكنهم تعرضوا كما ذكرنا لخطر الهون حوالي سنة ٤٥٣م وحينها هاجموا الهون ودمروا إمبراطوريتهم وأخذوا يلعبون دورهم الخاص كبقية القبائل الجرمانية، وبدأوا بالتجول في أقاليم البلقان وأخذوا يعيثون فساداً في بلاد اليونان وسببوا ضغطاً شديداً على القسطنطينية وقد صادر ثيودريك ملكاً للقوط الشرقيين سنة ٤٨٠م. ولما تفاقم خطرهم خطرهم على البلقان رأى الإمبراطور الشرقي زينون أن يعهد إلى ثيودريك بإدارة شؤون إيطاليا ليبعده عن البلقان ويحدث الصدام بينه وبين أدواكر ويضعف بذلك الطرفين مرة وحدة. وقد نزل ثيودريك إيطاليا ودخل في معارك طاحنة مع إدواكر انتهت آخرها سنة ٤٩٠ بهزيمة ساحقة لأدرواكر سنة ٤٩٠م وتحطمت بذلك قواته. وسارع مجلس السيناتو في إيطاليا بتأييذ ثيودريك والاعتراف به سيداً على إيطاليا وهكذا حل القوط الشرقيون في إيطاليا تحت زعامة ثيودريك وأقاموا هناك مملكة مستقلة في ظل التبعية الإسمية للإمبراطورية الشرقية، ولكنه لم تكد تمضي سنوات قليلة على وفاة أدواكر حتى نزلت قوات حستنيان العظيم بإيطاليا وانتزعها من القوط الرقيين وقضى على دولتهم نهائياً قرب منتصف القرن السادس الميلادي[29].

الفرنجة وغالة: الفرنجة هم أحد عناصر الجرمان الغربيين الذين صاروا في القرنين الثالث والرابع قوة جرمانية كبيرة وانسابوا في شمال غالة مكونين مجموعتين كبيرتين هما الفرنجة البحريون أو الساليونSaliens والفرنجة

---

[28] م.م .الشيخ، المرجع السابق، ص ص.١٠٢-١٠٦

[29] نفسه، ص ص.١٠٨-١٠٩

البرّيـــون أو الريبوريـــون Ripuaires. وظـــل الفرعـــان مـــصدر خطـــر كـــبير علـــى ســـلطات الإمبراطوريـــة الومواينـــة في غالـــة فتـــرة كويلـــة وبعـــد ســـقوط الإمبراطوريـــة الغربيـــة ســـنة ٤٧٦م بطلـــع الفرنجـــة البحريـــون للاســـتيطان في غالة ونجـــح كلـــوفيس زعـــيم الفرنجـــة البحـــريين ومؤســـس دولتـــهم أن يلحـــق الهزيمـــة بممثـــل الإدارة الرومانيـــة في غالـــة ســـنة ٤٨٦م ويمهـــد للانتـــشار في الجهات الشمالية من غالـــة. ويعتـــبر كلـــوفيس هـــو مؤســـس البيـــت الميروفنجـــي والدولة الفرنجية التي عاشـــت طـــوال العـــصور الوســـطى وتولـــدت منـــها مملكـــة فرنـــسا في التـــاريخ الأوربي الحـــديث. كانـــت قـــوة الفرنجـــة ترجـــع إلى جـــرأة وطمـــوح كلـــوفيس الـــذي لعـــب دوراً كـــبيراً في تـــاريخ فرنـــسا ثم في تـــاريخ الغرب الأوربي ثانياً. وكـــذلك ترجـــع إلى حـــرص الفرنجـــة علـــى التوســـع فقـــط في المنـــاطق المجـــاورة لهـــم فظـــل موطنـــهم الأصـــلي في الحـــوض الأدنى لنـــهر الراين وذلـــك بخـــلاف بقيـــة العناصـــر الجرمانيـــة الـــتي ابتعـــت عـــن مواطنـــها الأصـــلية وصـــارت تحـــت رحمـــة الأعـــداء ولهـــذا احـــتفظ الفرنجـــة بحـــضارتهم وتـــراثهم وحيويتـــهم وظلـــوا أمـــة مترابطـــة تعلـــو فـــوق عوامـــل التفكـــك والـــضياع وســـط المحـــيط اللاتـــيني الكـــبير الـــذي نجـــح في إذابـــة جماعـــات جرمانيـــة أخـــرى. ولكـــن أهـــم خطـــوة كفلـــت الاســـتمرار والبقـــاء لمملكـــة الفرنجة هـــو مـــا قـــام بـــه كلـــوفيس ســـنة ٤٩٦م مـــن تحـــول مـــن الوثنيـــة إلى الكاثوليكية الـــسائدة في غالـــة، فأقـــدم بـــذلك علـــى أهـــم خطـــوة في تقريـــب نفسه مـــن قلـــوب الـــسكان وســـلطات الكنيـــسة الكاثوليكيـــة في غالـــة وأحـــل قومه مترلة هامـــة وســـامية بـــين أهـــل الـــبلاد المفتوحـــة٣٠ . وســـوف يترتـــب على هـــذه الخطـــوة نتـــائج سياســـية هامـــة٣١. وهكـــذا صـــار كلـــوفيس بهـــذا التصرف الحكيم بطلاً مـــن أبطـــال المـــسيحية الكاثوليكيـــة وســـيفاً مـــن ســـيوف

[30] هذا في الوقت الذي دخلت فيه طوائف الجرمان الأخرى إلى جوف الإمبراطورية الرومانية لتقيم ممالك جرمانية أريوسية المذهب مخالفة بذلك المذهب السائد بين بقية السكان ولتمثل طبقة مذهبية مناهضة لبقية الطبقات الأخرى.

[31] يذكر أن الدافع وراء هذه الخطوة التي اتخذها كلوفيس باعتناقه المسيحية الكاثوليكية ترجع إلى زواجه من أميرة برجندية كاثوليكية هي الأميرة كلوتيلدا التي ربما أغرته باعتناق هذا المذهب..

المسيح لتقليم أظافر الممالك الأريوسية المجاورة ووضع حدّ لعبثها في البلاد والقضاء على زندقتها الدينية باسم الكنيسة الكاثوليكية. وقد رضي كلوفيس وهو ملك من البرابرة أن تستلم حكومته الإرشاد من الكنيسة وأن يضع نفسه في خدمة تلك الكنيسة وقد دام هذا الحلف طويلاً بين دولة الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية وآذن بظهور عصر جديد في تاريخ غالة والتاريخ الأوربي معاً.



2Figure

الإنجليز والسكسون في بريطانيا: قدم الإنجليز والسكسون والجوت من شواطئ بحر الشمال ومن شبه جزيرة جرتلاند ومن الدانمارك ومن الجهات الواقعة إلى جنوب الدانمارك وكان يربط بينهم اشتراكهم في اللغة والعادات ويجمع بينهم هدف الاستقرار في موطن جديد. وقد لعبت هذه العناصر دوراً هاماً ف٢٢٠ي تاريخ الجزر البريطانية واستمرت هجماتهم على الشواطئ الشرقية للجزر البريطانية وشواطئ بحر المانش منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي. واستغرقت المرحلة الأولى من غزواتهم لبريطانيا الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس تقريباً إذ توافد الإنجليز والسكسون في حركة تشبه حركة الاستعمار وتميزت بالقسوة في معاملة السكان وفي بداية القرن السابع الميلادي استولى الجرمان على كل ما هو معروف الآن باسم إنجلترا باستثناء بعض المدن المنيعة. وترتب عن هذه الغزوات تقهقر اللغة اللاتينية وتراجع المسيحية وانحطاط المدن الكبرى

واضمحلال النظم الرومانية وتحول رؤساء القبائل وزعماء العشائر الجرمانية إلى ملوك متوجين بعد استقرارهم فظهرت ممالك قبلية متعددة وساعدت الظروف الجغرافية على تكوينها إلا أن الحروب الداخلية منعت تطورها و لم تصبح إنجلترا موحدة إلا بعد مرور أجيال عديدة٣٢.

المحاضرة الخامسة

الإقطاع والنظم الإقطاعية في أوربا خلال العصور الوسطى

-تمهيد

- ماهية الإقطاع

- بروز وتطور مبادئ الإقطاع

- التكريبة الاجتماعية للمجتمع الإقطاعي

- نضج النظام الإقطاعي وزواله

* * *

لم يكن العصر الوسيط عصرا منفصلا عن العصور التي سبقته أو لحقته فمنذ بداية العالم والعصور التاريخية يلاحق بعضها بعضا في عملية نمو بطؤء يتدرج فيه المجتمع الإنساني من مرحلة إلى أخرى لأسباب عديدة ولما كان العصر الإقطاعي مرحلة من مراحل تاريخ العصور الوسطى فالحكم نفسه ينطبق عليه .بمعنى أن العصر الإقطاعي ليس منفصلا عما سبقه أو لحقه من عصر وهو طور من أطوار النمو الذي تدرجت فيه البشرية. وبلغت مرحلة الإقطاع مداها في أوربا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادي وليس معنى ذلك أن الإقطاع بدأ في مطلع القرن التاسع وانتهى بنهاية القرن العاشر فالتطور إلى المجتمع الإقطاعي ليس بالحادثة التي يحددها زمن معين مثل معركة أو تنصيب ملك على العرش إنما هو عملية تطور تدريجي وطبيعي.

---

[32] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ص .١١٥-١٦٦

١- تعريف الإقطاع: الإقطاع هو مصطلح عام يستعمل لوصف النظام السياسي والعسكري الذي كان سائدا في غربي أوربا خلال القرون الوسطى ففي ذلك العصر لم يكن هناك حكومة مركزية قوية كما كان الأمن ضعيفا ولكن النظام الإقطاعي كان يسد الحاجة الأساسية من العدالة والحماية وكثيرا ما يخلط الناس بين الإقطاع والنظام الإقطاعي الزراعي. فقد كان الإقطاع الزراعي نظاما لتنظيم العمالة الزراعية ويشير إلى العلاقة الاقتصادية بين السيد الذي يملك الأرض الزراعية والفلاحين الذين يستأجرون منه الأرض وعلى الجانب الإخر فإن الإقطاع كان في جوهره نظاما سياسيا وعسكريا وكان كل من السيد وأفراد رعيته الذين يعرفون باسم المقطعين من الأرستقراطيين وكان السيد يمنح الأرض للمقطعين مقابل قيامهم بخدمات عسكرية وكان السيد والمقطعون يلتزمون فيما بينهم برباط من المراسيم والعهود على أن يخلص كل طرف للآخر ويوفي بالتزاماته. أما الفلاحون فلم يكن لهم دور في مثل هذه الترتيبات.

- نشأ النظام الإقطاعي ليوفي بحاجات عصره ففي القرن الخامس ميلادي غزت القبائل الجرمانية أراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية وقامت بتقسيمها إلى ممالك عديدة وكانت هذه الشعوب الجرمانية يسمون البرابرة لا تدين بالولاء إلا لزعماء قبائلها وأسرها وهكذا زالت الحكومة المركزية الرومانية وقد أدت تلك الغزوات إلى حالة من الفوضى العامة والحروب المستمرة في السنوات التي تلت غزو البرابرة للامبراطورية الرومانية الغربية وقد ساعد النظام الإقطاعي في إقامة النظام في أوربا الغربية. وقد أنشأ الصليبيون في القرن الثاني عشر الميلادي دولهم في الشرق الإسلامي على أساس من النظام الإقطاعي. وقد ظهر النظام الإقطاعي أولا في كل من فرنسا وأنجلترا وإسبانيا ثم انتشر في باقي الأنحاء الأخرى من العالم المسيحي وأنشأ الصليبيون دولتهم في

الشرق الأدنى على أسس النظام الإقطاعي وقد بلغ النظام الإقطاعي فمته بين القرنين التاسع والثاث عشر الميلاديين ولكنه أصبح نظاما باليا في القنر الخامس عشر الميلادي٣٣.

وهكذا فٌن الإقطاع الأوربي بهذا المفهوم السابق هو نظام اقتصادي ساد في أوربا منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث عشر. ولإقطاع يعني أراضي زراعية مملوكة لأحد النبلاء أو الأشراف يعمل فيها عدد من الفلاحين وقد انتشرت في معظم أنحاء أوربا وكانت الإقطاعيات تتكون من الأراضي التي يمتلكها النبلاء والأراضي التي يتمتلكها الفلاحون أيضا. ويعيش النبلاء في بيوت داخل الضيعة الإقطاعية محاطة بالحدائق وأشجار الفاكهة والمباني الأخرى وكان لكل بيت من هذه البيوت كنيسة وطاحونة للدقيق ومعصرة للخمور وفي هذا النظام كان الفلاحون يعتمدون على النبلاء في حمايتهم من الأعداء وفي قضايا العدالة العامة أمام الدولة نظير أن يعمل الفالحون في مزارعهم الخاصة بالاضافة إلى مزارع النبلاء أي أنهم ملتصقون بالأرض ويعدون جزءا من الأملاك ويظلون في المزرعة حتى عند بيعها إلى نبيل آخر. وبدأ النظام الإقطاعي الأوربي في الأفول في الوقت الذي تلى ازدهار التجارة والصناعة وهذا الازدهار أدى إلى ظهور نظام اقتصادي يقوم على دفع المال للحصول على السلع والخدمات وقد اختفى نظام الإقطاع الأوربي في غرب أوربا أولا ثم استمر في بعض أجزائها في الوسط والشرق إلى القرن التاسع عشر ميلادي.

٢- بروز النظام الإقطاعي ونشأته:

ضعفت الملكية أمام الغزوات الجرمانية وتقاتل النبلاء وأبناء الملوك على تقاسم الأرض والسلطة وعجزوا عن حماية الشعب وتعرضت مناطق كثيرة للنهب والسرقة وسادت القفوضى وانتشر الفقر والجوع فظطرت

[33] الموسوعة العالمية/ عالم التاريخ والحضارة حرف أ، ج.٢، الطبعة الثانية، ص. ٤٣١

كل منظقة أن تتولى الــدفاع عــن نفــسها فــراح الــشعب يلتــف حــول قائــد قوي وهــو يتــولى القيــادة والحمايــة ويــبني قــصرا حــصينا يكــون المــسكن والحصن ومركــز جمــع الغــلال والــسلاح والمقــاتلين وأخلــص النــاس للــسيد حــتى يحمــيهم وخصــصوا لــه قــسما مــن الغــلال كــذلك خصــصوا أيامــا يعملون في خدمتــه وهــو بالمقابــل يــؤمن حمايتــهم وعيــشتهم وقــت الــضيق ويــوزع علــيهم الأرض والعمــل وهــو بــدوره يخــضع لإقطــاعي أكــبر منــه وتتسلل عمليــة الطاعــة حــتى تــصل إلى الملــك فكــل لإقطــاعي مبــدئيا ســيد ععلى لإقطاعي وخاضع لإقطــاعي أكــبر مــه وبــين أقطــاعيين مواثيــق وعهــود ولهــم حيــاتهم الخــصاة فيمــضون معظــم وقتــهم في الــصيد والتمــارين العــسكرية والرياضــية والإلعــاب كــدلك في الحــرب عنــدما تقــدعو الحاجــة ولهم تقاليــد الفروســية مــن كــرم وشــجاعة ومــساعدة المحتــاج والعفــو عــن الضعيف واحترام النــساء والأطفــال والإخــلاص لوعــد قطعــوه علــى أنفــسهم ومــع الوقــت قــوي الإقطــاعيون وأصــبحوا يتحــدون تحــت ســلطة الملــك ويجمعــون الــضرائب ويفرضــون العدالــة والنظــام وســنون القــواني وســكون العملة ويفعون علما خاصا بهم.

كانت حال الفلاحين ســيئة فثــاروا عــدة مــرات ضــد أســيادهم وكــان قمــع الإقطاعيين عنيفا لكــن الفلاحــين اســتمروا يــسعون للحــصول عــل حقــوقهم حتى تحسن وضعهم وحــصلوا علــى بعــض الحقــوق مــن الأســياد الإقطــاعيين وبنيــت الأســوار لحمايــة نفــسها وأقــام جماعــة مــن الفلاحــين في ضــاحية المدينــة خــارج الــسور المــسمى بــورج bourg ثم تعــاطوا المهــن الحــرة فاعتنوا وشكلوا طبقة عظمــت قوتهــا مــع الوقــت عرفــوا بــالبرجوازيين تنــافس الإقطاعيين حتى اســتطاعت فيمــا بعــد أن تأخــذ مكــانهم وهــي الــتي ســتقود الثــورة الفرنــسية الكــبرى في أواخــر القــرن الثــامن عــشر المــيلادي فتقلــب واقع المجتمع الأوربي٣٤.

---

[34] الموسوعة العالمية، عالم الحضارة، ص. ٤٣١

٣- قواعد وأسس النظام الإقطاعي: نشأ النظام الإقطاعي عن أصلين أساسيين أولهما علاقة الشرف التي تربط بين العصابات الجرمانية المقاتلة التي كانت تجوب مساحات شاسعة في أوائل القرون الوسطى فقد كان هناك عهد بالولاء بين قادة ومقاتلي هذه العصابات كان المقاتلون يحاربون من أجل شرف قائدهم ويتوقع منهم أن يضلوا معه حتى الموت وفي المقابل كان القائد مسؤولاً عن رجالهم ويكافئهم بالمجوهرات والفخار وكان الأصل الأساسي الثاني لنشوء الإقطاع هو نظام حيازة الأرض، ففي ظل هذا النظام كان السيد الإقطاعي أو اللورد يمنح الأرض لشخص ما وفق شروط معينة أو مقابل خدمات وليس مقابل إيجار وقيمة مالية وكان بعض ملاك الأرض ينقلون ملكية الأرض أرضهم إلى السيد الإقطاعي مقابل حمايته لهم.وكان السيد يسمح للناس بالبقاء في أرضه كزراع مستأجرين وهؤلاء الزراع المستأجرون هم الذين أصيحو فيما بعد فلاحين في ظل الإقطاع الزراعي وبالرغم من أنهم كانوا يفقدون استقلالهم بموجب هذا الترتيب إلا أن الحصول على الحماية من قبل السيد الإقطاعي المحلي القوي كان أمرا أكثر أهمية بالنسبة لهم وقد كان نظام حيازة الأرض قد بدأ العمل بموجبه مسبقا في المقاطعات القديمة التي كانت تتبع الإمبراطورية الرومانية عندما استقر فيها الغزاة الجرمانيون في القرن الخامس الميلادي.

وفي القرن الثامن ميلادي كان المسلمون قد دخلوا إسبانيا قادمين من أفريقيا ووصلت إمبراطوريتهم الجديدة إلى حدود أوربا الغربية وبدأ الملوك والنبلاء ذوي الشأن في منح الإقطاعات إلى المقاتلين الأحرار والنبلاء مقابل الخدمة العسكرية وكانت هذه الإقطاعات تشمل الأرض والمباني التي عليها والفلاحين الذين يعيشون ويعملون فيها وكان يطلق على المقاطعين الذين يتسلمون الإقطاعات اسم المقطعين وفي القرن التاسع الميلادي صارت علاقة الشرف والولاء التي سادت بين الزعماء

والمحاربين في العصابات الجرمانية المقاتلة ترتبط أيضا بنظام حيازة الأرض وتقديم الخدمات في المقابل وكانت نتيجة تجاوز هذين العاملين ما يعرف بالنظام الإقطاعي.

أما مبادئ النظام الإقطاعي فتنص على أنه ليس بمقدور أحد سوى النبلاء أو المحاربين الأرستقراطيين أن يشاركوا في الممارسات الإقطاعية ويقول أحد أمثال ذلك العصر: لا أرض بلا سيد ولا سيد بدون أرض. وكان الرجل يصير مقطعا للسيد وفق مراسيم تعرف باسم الولاء فكان على لشخص الذي بصدد أن يصبح مقطعا أن بتعهد بأن يكون مواليا لليد وأن يقاتل من أجله وان يصبح من رجاله. أما السيد فقد كان يتعهد بأن يعامل المقطع بشرف بعد أداء مراسيم البيعة كان المقطع الجديد يمنح حقوق استخدام إقطاعه وكان ذلك يتم وفق مراسيم تقليد المنصب وكان السيد في غالب الأمر أثناء هذه المراسيم يقوم بإعطاء المقطع كتلة من الطين أو عصا أو أي شيء آخر بمثابة رمز لإقطاعه وليس ملكيتها وكان يحتفظ بالاقطاع مقابل الخدمات التي تعهد بها. وكان المقطع يأخذ ما تنتجه الأرض وما ينتجه الفلاحون ويجمع الضرائب ويعقد الجلسات للنظر في قضايا الفلاحين. وكان يدير شؤون أعمال الفلاحين وعندما يموت المقطع كان يتولى فارس مسلح للمعركة في القرن الثالث عشر الميلادي يحمل سيفا ودرعا وتغطي رأسه خوذة ويمكن للفرسان الآخرين أن يتعرفوا عليه فقط بشعار النبالة وكان الابن يقوم بتقديم نفس الخدمات التي كان يقدمها والده وبحلول القرن الثاني عشر ميلادي أصبح العرف أن يرث الإقطاعي الإبن الأكبر للرجل وأطلق على هذا العرف اسم حق البكورة وقد عمل هذا العرف على ضمان أن لا يتم تقسيم الإقطاع لعدة أبناء وأن يتولى المسؤولية وريث واحد وفي حالة وفاة المقطع كانت الإقطاعية تعود إلى السيد وبذلك كان يتسنى للسيد أن يجمع الإقطاعية لشخص آخر حسب ما يراه. أما

في حالة إن كان وريث المقطع طفلا صغيرا فكان للسيد حق الوصاية ويكون بذلك وصيا على الطفل القاصر.

٤- التركيبة الاجتماعية للمجتمع الإقطاعي: كان المجتمع الإقطاعي يتكون من العبيد ورقيق الأرض والأحرار. أما الأحرار فهم البارونات ورجال الدين والجنود النظاميين ومعظم التجار والصناع وأصحاب المهن وأخيرا الفلاحون الذين يملكون أرضا ولا يرتبطون بأي سيد إقطاعي إلا قليلا وكان هؤلاء الأحرار من القلة بحيث لم يتجاوز عددهم ربع الأهالي في أوربا الغربية.

طبقة العبيد: كانت كلمة SERVUS في اللاتينية تطلق على رقيق الأرض والعبيد لكن هذا اللفظ تطور مع مضي الزن وتحول إلى كلمة SERF لتقابل رقيق الأرض وكلمة SLAVE أي العبيد وكان معظم العبيدج في أوربا يتكونون من أسرى المسلمين أو الصقالبة أو من الصبيان الصغار وكذلك البنات الذين يخطفون من البلاد الإسلامية أو بلاد اليونان أو البلاد الممتدة على سواحل آسيا الغربية والبحر الأسود، وشمال إفريقيا وكانوا يباعون للعمل في الزراعة أو الخدمة المترلية. وقد راجت في إيطاليا بصفة خاصة، ولعل ذلك يرجع إلى تقارب إيطاليا مع بلاد اليونان والبلاد الإسلامية في حوض المتوسط والأندلس وكان هؤلاء التجار يقومون بهذا العمل وهم مراتاخو الضمير باعتبار أن هذا العمل يعتبر انتقاما من غارات المسلمين على الأراضي المسيحية وإذا كان هذا مالمفهوم قد ساء التجار الإيطاليين في بداية الأمر فإن جشع التجار دفعهم إلى بيع آلاف الأطفال المسيحيين الذين كونوا حملة الأطفال في عام ١٢١٢م إلى البلاد الإسلامية في الشام ومصر وشمال إفريقيا وراجت هذه التجارة في الشرق كثيرا وهو ما عرف باسم المماليك.

والواقع أن نظام التعامل مع العبيد كان نظاما قديما وليس وليد العصور الوسطى ولكن في نظام العصور الوسطى ساعدت الكنيسة على

إباحة استرقاق المسلمين والوثنيين وإن كانت قد حرمت بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين. وإذا كان البابا جريجوري الأول ٦٩٠-٦٠٤م قد أعتق اثنين من العبيد وقال إن الناس جميعا لهم الحق في الحرية، إلا أنه ظل يستخدم المئات من العبيد في ضياع البابوية كما أنه حرم على العبيد أن يصبحوا من رجال الدين أو أن يتزوجوا من نساء مسيحيات أحرار. ولكن استرقاق الكنيسة للعبيد قد انتهت تقريبا مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي٣٥.

وكان الأرقاء الذين يعملون في الشياع البابوية يحرمون من توريه ما يملكونه لأحد بل كان ما يمكلونه يصبح ملكا للكنيسة مباشرة. ومما سحع على الاسترقاق داخل أوربا أن بعض الفلاسفة أمثال توماس الأكويني قد فسر الاسترقاق بأنه النتيجة لخطيئة آدم وأنه وسيلة اقتصادية في محيط يكد فيه البعض ليمكنوا الآخرين من الدفاع عنهم. ورغم هذا كله فقد أخذ الاسترقاق طريقه نحو الاضمحلال بسبب التطورات الاقتصادية فقد اتضح للجميع أن الإنسان العادي يعمل تحت العبودية والقهر أقل إنتاجا من الإنسان الذي يعمل في ظل الحرية.

الأقنان: الأقنان أو عبيد الأرض، ومفرهم قن وهو الفلاح الذي يعيش على قطعة الأرض يمنحها له السيد الإقطاعي. وكان هذا القن يمتلك هذه الأرض أو تؤجر له مدى الحياة مقابل لأن يمنحه السيد الإقطاعي حمايته العسكرية وفي نظير ذلك يؤدي له القن أجرا سنويامن الغلال أو العمل أوالمال. والقن مربوط إلى هذه الأرض ولا يكلك الحرية في الانتقال منها. وللمالك أن يطرده منها متى شاء وإذا مات هذا القن فلا تنتقل قطعة الأرض إلى ورثته إلا بموافقة السيد الإقطاعي.

وإذا كانت هذه هي الأسس الرئيسة التي تقام عليها العلاقة بين السيد الإقطاعي والقن فهناك روابط أخرى تربط القن بالسيد الإقطاعي

---

[35] محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية،

وبأرض الممنوحة لــه. فمــن المعــروف أيــضا إذا تــزوج القــن أو رزق بمولــود فعليه أن يــؤدي مباغــا معينــا رمــزا لتبعيتــه للــسيد الإقطــاعي كمــا أن القــن كــان مــن الــسلعة يبــاع ويــشترى حــسب مــا يــرى الــسيد الإقطــاعي. والحقيقة أنه رغــم أن هــذه الــروابط الــتي تبجــو قاســية فــإن القــن نفــسه لم يفضل ترك الأرض لأنهــا المــورد الوحيــد لكــسب عيــشه وإذا انتقــل إلى آخــر فالحال كما هو لــذلك فــضل القــن البقــاء وســط الأرض الــتي ولــد وترعــرع فيها عمل بها، كمــا لم يكــن مــن الــسهل علــى الــسيد الإقطــاعي أن يطــرد أقنانــه مــن الأرض لأن هــذه الأرض ســوف تــصبح عديمــة الفائــدة بــدونهم. ولمــا كانــت المنــافع متبادلــة بــين الــسيد الإقطــاعي وأقنانــه فــإن جماعــات الأقنان عاشت في الأرض الممنوحــة لهــا أجيــالاً بعــد أخــرى. وإذا كــان مــن المتعــارف عليــه أن القــن في أوربــا العــصور الوســطى كــان يبــاع ويــشترى فإنه كان يبــاع ويــشترى مــع الأرض نفــسها، وهــذا الوضــع هــو في صــالح البــائع والمــشتري معــا، فمــن مــصلحة المــشترى أن يــشتري الأرض مــع العمال الذين خبروها وأصلحوها ومارسوا فلاحتها.

ومن أشهر ما عــانى منــه الأقنــان حــرب الوراثــة الــتي تقــع علــى الأرض إذا مات صاحبها دون إبــن أو ابنتــه لــذلك كــان الأقنــان يلحــون علــى ســيدهم بالزواج إذا ماتت زوجته حتى لا يتعرض لمثل هذه الحروب.

كان الفلاح يسكن الكــوخ مــن الخــشب يعلــوه ســقف مــن الخــشب غالبــاً وإذا اشتعلت النار في أحد الأكــواخ أتــت علــى الكــوخ تمامــاً. وبــداخل هــذا الكوخ وجدت كبيرة توضــع علــى الأرض ينــام عليهــا القــن وأســرته وبعــض الأدوات المترلية التي تفــي بغــرض الحيــاة وكانــت الخنــازير والــدواجن تعــيش في الفناء الممتد أمــام المــترل وبلاقــرب مــن هــذا الكــوخ كــان يوجــد فنــاء مسور للأبقار والخيول.

أما عن ملابس القــن أو الفــلاح فقــد كانــت قميــصا مــن القمــاش أو جلــد الحيوان وعيه ســترة مــن الــصوف أو مــن الجلــد وســروالا ويــشع في قدميــه

جذاء عاليا أو نصف عال. وكان القن وزوجته يكدحان من يزوغ الشمس إلى غسق الليل ورغم هذا كله فلم يكن القن يعتبر نفسه مظلوما مغلوبا على أمره بل تصور نفسه بطلا يفلح الأرض قويا صبوراً وهو يتحمل كل ذلك العناء في سبيل أسرته وفي سبيل السيد الإقطاعي والذين يعيشون حوله. وكان غذاء الفلاح يتكون من البيض ومنتجات الألبان والخضر وبعض اللحوم والخبز الأسود. وعاش مع أقرانه من القرية الإقطاعية حياتهم البسيطة يجتمعون في المناسبات وأيام الأعياد والآحاد في ساحة القرية أو الكنيسة وعلينا أن نعرف أن القن كان أميا لا يعرف شيئا سوى فلاحة الأرض، لذلك سيطرت الخرافات على عقله ولكنه كان مقتنعا بالموت إذ كان مهددا دوما بالحريق أو القحط أو الحيوانات المفترسة مثلما حدث في فرنسا بين عامي ٩٧٠-١١٠٠م من القحط الذي أهلك الحرث والنسل وكما حدث في إنجلترا في الفترة بين ١٠٨٦-١١٢٥م حتى اضطر الأهالي إلى أكل لحوم الخيول ولذلك كان هذا الفلاح أو القن جلفا عنيفا شرها قاسيا.

٥- النظام الإقطاعي في مرحلة نضجه:

استغرق نمو النظام الإقطاعي حوالي قرنين من الزمان من القرن ٩-١٠ الميلاديين، وتم ذلك النمو وسط اضطرابات كبيرة. ويرجع المؤرخون إلى شارلمان في القرن الثامن الميلادي بدايات النظام الإقطاعي ويعتبر نظام الوراثة الذي ساد على بد خلفاء شارلمان والذي ينص على تقسيم الامبراطورية بين أولادهم أحد مرجعيات هذا النظام. وتمت عملية النضج بالنسبة للنظام الإقطاعي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر حيث نلاحظ أن الحكومة المركزية صارت شبه معدومة وأن ولاء الناس قد تحول من الحكومات المركزية إلى بعض النبلاء المحليين بعد فشل قيام الحكومات المركزية بدور ملحوظ في الدفاع وخدمة المواطنين وهؤلاء النبلاء المحليون هم الذين تحملوا عبء المسؤولية في الأراضي الزراعية التي

كانت تحت أيديهم ومن ذلك قيام أودو كونت باريس بالدفاع عن المدينة عندما هاجمها الشماليون في عامي ٧٧٤-٧٧٨م.

وفي هذه المرحلة نجد أن امتلاك الأرض أصبح مصاحباً لحق امتلاك السلطة والحكم فاندمجت الأرض في السلطان وقامت علاقات بين صاحب الأرض ومن يعيش على هذه الأرض، وارتبطت العلاقات بتعهدات مشتركة والتزامات متبادلة بين الطرفين حتى صارت هذه التعهدات هي القاعدة التي سارت عليها أمور الحكم ومتطلبات الحياة الأمن والحياة في أوربا العصور الوسطى.

وفي مرحلة اكتمال نمو النظام الإقطاعي أصبح المجتمع يتشكل في صورة هرم قمته الإمبراطور أو الملك ويليه في الأسفل كبار البارونات أو الأفصال ثم يلي هؤلاء جماعة أقل نفوذا وهكذا إلى أن نصل إلى أسفل القاعدة حيث العبيد والأقنان.

٦- الفروسية والعدالة في ظل النظام الإقطاعي:

أ- الفروسية: كانت الخدمة الأساسية التي يقدمها المقطع لسيده تتمثل في الخدمة العسكرية وخلال القرن الثامن ميلادي كان يتوجب على المقطعين أن يوفورا عددا معينا من الفرسان لخدمة السيد لمدة من الأيام وكانت هذه المدة أربعين يوما في العادة نوكان الفرسان عبارة عن مقاتلين مدرعين على صهوات جياد الحرب وكلما كانت الإقطاعية التي يتولاها المقطع أكبر كان لزاما عيه أن يوفر عددا أكبر من الفرسان وأصبح من التقاليد السائدة أن يقومن المقطع بتقسيم إقطاعيته وأن يصبح الفرسان بدورهم مقطعين تابعين له. وعرفت هذه العملية باسم الإقطاع من الباطن.

ب- العدالة: كانت التراعات التي تنسأ بين المقطعين تسوى في الحلسات التي يعقدها السيد الإقطاعي وكانت تضم جميع المقطعين وهناك العديد من التقاليد القانونية التي نشأت في المحاكم الإقطاعية وأصبحت فيما بعد

جـزءا مـن الأنظمـة القانونيـة لبريطانيـا والبلـدان الأخـرى. وعلـى سـبيل المثـال كـان الـسيد هـو الـذي الـذي يتـرأس جلـسات المحـاكم الإقطاعيـة وكان الحكم يـصدر علـى المقطـع مـن قبـل المقطعـين الآخـرين مـن أنـداده التي يكونون بمثابة المحلفين.

أمـا الأعـراف والتقاليـد القـضائية الأخـرى لعـصر الإقطـاع فقـد اختلفـت حسب الأقاليم. ومن هـذه الأعـراف مـا كـان يعـرف باسـم المحاكمـة عـن طريق المبـارزة حيـث كـان المقطعـان المتنازعـان يـدخلان في مبـارزة وكـان من ينتصر في هـذه المبـارزة يكـون هـو الـذي يكـسب القـضية فقـد كـان يعتقد أن الإله يعطي النـصر للمقطـع الـشريف أو الجانـب الـذي معـه الحـق. وكـان واجبـا علـى المقطـع أن يـستجيب لأوامـر التكليـف بـالمثول أمـام المحكمـو وإذا لم يحـضر المقطـع جـاز للـسيد الإقطـاعي أن ينتـزع منـه مـا أقطعه أما المقطع المتمرد فكـان يعـد مجرمـا وكـان مـن المفتـرض علـى الـسيد أن يأخذ مشورة وموافقة المقطعين التابعين له قبل إصدار القوانين.

٧- القرية الإقطاعية:

تكونت القريـة الإقطاعيـة مـن مجموعـة مـن الفلاحـين بعـضها مـن الاقنـان والبعض الآخـر مـن أنـصاف الأحـرار والأحـرار. وكـان هـؤلاء الفلاحـون يبنون أكوخهم حول قـصر أو قلعـة الـسيد الإقطـاعي للاحتمـاء بـه. لـذلك كانت هذه الأكـواخ متقاربـة مـن بعـضها داخـل أسـوار القريـة مـن أجـل الأمان. وكانـت شخـصية العمـدة مـن الأهميـة داخـل القريـة بمكـان فهـو الذي ينسق نشاط الفلاحـين الزراعـي ويـتم اختيـاره بمعرفـة الفلاحـين وهـو الذي يتوسط بين الفلاحي والسيد الإقطاعي إذا لزم الأمر.

وكان الفلاحون يلتقون في سـوق القريـة في فتـرات محـددة لتبـادل مـا فـاض من السلع ولـذلك عملـت القريـة الإقطاعيـة علـى ضـمان الاكتفـاء الـذاتي بين سكانها، فقد كان الفـلاح ينـتج بنفـسه مـا يحتاجـه مـن الخـضر واللحـم وكان يغزل صوفة أو كتانـه بنفـسه أو بمـساعدة أفـراد أسـرته، كمـا كانـت

بعض الأعمال الـتي تخـصص فيهـا أحـد عمـال القريـة مثـل الحـداد ودابـغ الجلـود والنجـار الـذي يـصنع أثـاث المـترل والأكـواخ وصـانع العربـات والصباغ والبناء وصانع الـسروج والأحذيـة وغـير مـن الأشـياء الـتي يحتاجهـا المترل القروي.

وقامـت القريـة الإقطاعيـة أساسـاً علـى الزراعـة وكانـت أرض القريـة في العصور الوسـطى تقـسم إلى ثلاثـة أقـسام: يتـرك أحـدها للراحـة ولا يـزرع أما القسمان الآخران فقد كـان أحـدهما يـزرع شـعيراً ويـزرع الآخـر قمحـاً ثم يتم تقسيم كـل قـسم مـن الـذي سـيزرع إلى مـساحات صـغيرة يفـصل بينها شريط غير مزروع. وتـولى موظفـو القريـة تـسليم كـل قطعـة أو أكثـر لأحد الفلاحـين لزراعتـها وفقـا للخطـة الموضـوعة وكـان الفلاحـون جميعـا يتولون العملية الزراعيـة مـن حـرث وبـذر ورعايـة وحـصاد متعـاونين. وإذا فرغ الفلاحون مـن هـذه الأعمـال يقومـون بقطـع الأشـجار ورعـي الماشـية وجمع الكـلإ وكـان تـسميد الأرض يـتم بحـرق بقايـا النباتـات والأعـشاب الضارة.

وكـان عـدد مـن الفلاحـين يـشتركون في شـراء محـراث واحـد أو زحافـة لاستخدامها في أغـراض الزراعـة وذلـك لعـدم وجـود قـدرة شـرائية لـدى كل فلاح. واتخذ الثور كحيوان لجـر عربـة الفلاحـة باعتبـاره أقـل نفقـة مـن الحـصان ثمـن تطـور الأمـر واسـتخدم الحـصان بعـدما صـنعت الأطـواق الجلدية التي ساعدت علـى الجـر دون مـشقة حـتى أنـه كـان يحـرث في اليـوم أضعاف مـا يحرثـه الثـور وقـد اسـتفاد الأوربيـون مـن المـسلمين وأدخلـوا السواقي في العمليات الزراعية٣٦.

واعتـبرت الكنيـسة أن العمـل يـوم الآحـاد يعتـبر إثمـا كـبيراً لـذلك اتخـذ الفلاحون هذا اليـوم للراحـة والترفيـه. وكـان الفلاحـون يبـدأون هـذا اليـوم بالـصلاة في كنيـسة القريـة ثم ينطلقـون للغنـاء والـرقص والألعـاب الرياضـية

[36] محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص ص. ٢٧-٢٨

ككرة القــدم والمــصارعة والهــوكي أو رفــع الأثقــال كمــا تــسلى الفلاحــون بمــشاهدة مــصارعة الــديوك أو الــثيران ومــن المــشاهد المألوفــة في القريــة في أيــام العطــل وضــع أوزة أو دجاجــة في منطقــة مغلقــة ثم يقــوم رجــلان مقصوبا العينين بمحاولــة قتلــها بالعــصي. ويتــزاور الفلاحــون لــبعض الوقــت في الأمسيات يتناولون فيها الخمر والحديث عن متاعبهم أو مسراتهم.

٨- زوال النظام الإقطاعي:

تظافرت عــدة أحــداث في أوربــا خــلال القــرن الثالــث عــشر المــيلادي أدت إلى ضــعف النظــام الإقطــاعي الــذي لم يــزل نهائيــا إلا مــع الثــورة الفرنــسية ١٧٨٩م. وكــان مــن هــذه الأســباب النهــضة الاقتــصادية الــتي أدت إلى تداول العملــة فــصار تــشغيل الأجــراء مقابــل المــال ولــيس مقابــل الخدمــة العينية وبهذا تــضاءل عــدد الــسادة الإقطــاعيين الــذين كــانوا يعتمــدون علــى المقطعــين في تــوفير خــدمات الفرســان. كمــا أدى اختــراع البــارود وأســلحة أخرى مثل القوس الطويــل والمــدافع إلى إضــعاف ســيادة الفرســان فقــد هــزم جنود المــشاة مــن المــدن الفرســان الفرنــسيين في معركــة مــن المعــارك الــتي دارت فيمــــا بينــــهم في كريــــسي عــــام ١٣٤٦م وفي أجينكــــورت عــــام ١٤١٥م ولمن تعد القلاع البحريــة الــتي كــان يقــيم فيهــا الــسادة الإقطــاعيون غــير قــادرة علــى الــصمود أمــام المــدافع ونمــت المــدن وازدهــر ثراؤهــا وتعاظمــت أهميتــها وقلــت حاجــة الحكــام إلى الطبعــة الأرســتقرطية وقــام أفرادها مــن الــشعب تلقــوا التــدريب علــى الخدمــة الحكوميــة بــشغل تلــك الوظائف التي كان يؤديها المقطعون في إقطاعاتهم.

المحاضرة السادسة

التعليم والجامعات في العصور الوسطى

المقدمة- التعليم في الأديرة- التعليم في الجامعات- الامتحانات وحياة الطلبة

بالعلم سادت الكثير من الأمم وتفوقت على غيرها من الأمم في جميع المجالات، لهذا السبب وجد الاهتمام بالتعليم منذ عصور ما قبل التاريخ. أما في التاريخ الأوربي فإن الغزوات الجرمانية كانت بربرية همجية وأدت إلى اضمحلال المدارس التي أنشئت في الإمبراطورية الرومانية، مما يفتح الباب أمام أوربا لتعيش أشد فترات تاريخها ضلاما من الناحية الثقافية والعلمية.

إلا أنه في القرن الثامن ميلادي ساهمت مؤسسات دينية في نشر وبعث الحركة التعليمة والعلمية وحملت على عاتقها مسؤولية نشر مختلف العلوم وقد تعددت هذه المؤسسات بمرور الوقت بدءاً بالأديرة والكاتدرائيات وانتهاءا بميلاد الجامعات في القرن الثاني عشر. فماذا ياترى وراء هذه المؤسسات من تطور تاريخي؟ وماذا عن طريقة تعليمها ومناهجها ومن هم طلابها وكيف ساهمت في بعث الحركة العلمية؟ هذه

كلها تساؤلات سنجيب عنها مـــن خـــلال هـــذه المحاضـــرة الـــتي تتـــضمن ثلاثـــة مباحث مراعين في ذلك التسلسل الزمني.

أولاً. التعليم في الأديرة والكاتدرائيات

١- الأديرة: لقـــد كانـــت المـــدارس التابعـــة للأديـــرة عـــاملاً هامـــا في انطـــلاق الحركـــة العلميـــة الدينيـــة خـــصوصا بعـــد أن أختفـــت غالبيـــة المـــدارس الـــتي أنشئت في عـــصر الإمبراطوريـــة الرومانيـــة وقـــد قـــدر لأديـــرة أيرلنـــدا بالـــذات أن ترعـــى بعـــض الدراســـات الإنـــسانية والثقافيـــة بـــل وتـــشع منـــها إلى بقيـــة أنحاء العالم مـــن أنجلتـــرا ثم إلى قلـــب القـــارة الأوربيـــة. لقـــد حـــازت المـــدارس الديرية علـــى إعجـــاب النـــاس في كـــل مكـــان. إذ أنـــشأ الرهبـــان الأيرلنـــديون كـــثيرا مـــن المـــدارس في معظـــم أنحـــاؤ العـــلام اللاتـــيني وشـــجعوا الدراســـة فيها٣٧.

وعلمت الأديرة علـــى إنقـــاذ تـــراث أوربـــا الفكـــري مـــن الـــضياع في وقـــت لم توجـــد قـــوة أخـــرى في الـــشطر الأول مـــن العـــصور الوســـطى، تعمـــل لهـــذه الغاية. وساهم في ذلـــك الـــرحلات الـــتي قـــام بهـــا الرهبـــان الأيرلنـــديون وكـــذا جهود شارلمان فقـــد اهـــتم بـــالتعليم في أواخـــر القـــرن الثـــامن وأوائـــل القـــرن التاسع، وهذا الاهتمـــام هـــو الـــذي جعلـــه يهـــتم بالمـــدارس الديريـــة وتـــدعيمها وإصلاحها وتوسيع دائـــرة نـــشاطها حـــتى غـــدت بعـــض هـــذه المـــدارس مثـــل تور وفولدا مراكـــزا للنـــشاط الفكـــري وقـــد قـــدر لكـــثير مـــن هـــذه المـــدارس الاســـتمرار عقـــب ســـقوط الإمبراطوريـــة الكارولنجيـــة مثـــل مـــدارس ريمـــس وليون وفريير وكورفي وفولدا وبافيا وغيرها٣٨.

ومـــا بـــين ســـنتي ٨٠٠-١١٠٠م عرفـــت هـــذه الفتـــرة بالعـــصر البنـــدكتي لأن رهبان القـــديس بنـــدكت أظهـــروا حماســـة بالغـــة في القيـــام بواجبـــهم في تعلـــيم الأشخاص خاصة الـــصغار منـــهم. إلا أنهـــم قـــاموا بهـــذه المهمـــة علـــى هـــامس

[37] محمد محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ١٩٩٦، ص.١٠٩

[38] سعيد عبد الفتاح عاشور، حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦، ص.١٦

المهمة الأصلية المتمثلة في مهام الدير وهي الانقطاع للعبادة وخدمة الدين. فقد خصص الرهبان ما يقارب أربع ساعات ونصف من حياة الراهب اليومية للعبادة والصلوات الجماعية، وقد غلب الطابع الديني على التعليم في الأديرة، ولكن كانت في كل دير مكتبة كبيرة مليئة بالكتب النادرة والمخطوطات إلى جانب تفرغ بعض الرهبان لعملية نسخ هذه الكتب[39].

وكانت هذه المدارس الديرية تقبل أنواعا من الطلبة بعضهم أعدوا أنفسهم ليكوهنوا رعبانا داخل الدير ولهذا سموا بالداخليين interni وكذلك العمل كرجال دين خارج الدير ولهذا سموا بالخارجيين externi والبعض الآخر كانوا لا يرغبون الاشتغال بالدين إطلاقا. وهكذا لم تكن المدارس الديرية في هذه الفترة قاصرة عل تعليم الديريين بل أنها استقبلت طلابا للعلم من غير الديريين أول مرة في تاريخها. ومنذ بداية القرن التاسع غدا لكل دير مدرستان منفصلتان إحداهما للديريين المتفرغين للعبادة وأخرى للطلاب الخارجيين وبذلك أسهمت المدارس الديرية في نشر الحركة التعليمية إلى حدج ما على الرغم أن نظمها ومواد دراستها ظلت دينية في أسلوبها وأهدافها فضلا عن أن النظام فيها كان صارما فلا يحصل الطلاب الداخليون على فرص اللغب إلا قليلا كما كان الهدوء سيود حتى في فترات الراحة بين الدروس. وعرف استخدام العصا لتأديب المتعلمين وكذا الحبس والصوم الإجباري وكلها كانت من الوسائل المألوفة كما أن تعليم العلمانيين لم يكن له نظام ثابت مما يترتب عليه بقاء أغلب من التحق به جهالا لا يعرفون القراءة والكتابة أن التعليم اتسم بالحزم ولاقسوة وضعف المستوى العلمي بالنسبة للقائمين عليه كما أن الدروس كانت تلقى شفهيا بشبب ندرة وارتفاع أسعارها وغلو ثمن الورق[40]. لقد قام الدير بدور بالغ الأهمية،

---

[39] مرسي، ص.١١٠

[40] مرسي، ١١١

فإذا كان قيام الدير غير مشروط بوجود مرسة فيه فإن كل دير كانت به مكتبة ضمنت على الأقل عدة نشخ ن الإنجيل وبعض المؤلفات في اللاهوت. ولما كانت الأديرة تتمتع في العصور الوسطى بممتلكات وأراضص واسعة فإنه صار من الضروري وجود سجلات وأرسيف في كل دير لضبط حساباته وقيد إيراداته ومصروفاته. كذلك حرصت الأديرة على الاحتفاظ بقوائم بأسماء أعضائها الأحياء منهم والأموات فضلا عن أسماء بعض الصالحين من نزلاء الأديرة المجاورة.ثم إن إحياء الأعياد والشعائر الدينية بالدير تطلب وجود تقويم يتضمن مواعيد دكرى القديسين كما حرص الكثير من الأديرة على أن يكون فيها حوليات لتدوين أهم الأحاث الجارية داخل الدير وخارجة مما جعل هذه الحوليات الديرية المصادر الوحيدة في كثير من الأحيان لتاريخ بعض البلدان الأوربية في العصور الوسطى٤١.

حقيقة أن الأديرة كانت كثيرة وعديدة في أوربا خلال العصور الوسطى إلا أن معظمها تعرض إلى الاضمحلال والذبول مما مهد الطريق لقيام منظمات أو هيئات ديرية أخرى ولكن لمن تلبث هي الأخرى أن جرفها تيار الترف والرغبة في التنعم بملاذ الحياة الدنيا فكان القرن الثاني عشر قرن اضمحلال الأديرة البندكتية بحيث لم تبق منه هذه الأديرة سوى قلة احتفظت بأهميتها كمراكز للحياة الفكرية في أوائل ذلك القرن ومن هذه الأديرة دير مونت كاسينو ودير بك فكان الأول به مكتبة ضخمة ضمت مؤلفات جريجوري التوري وبولس الشماس فضلا عن بعض الأثار الفكرية القديمة لشيشرون وأوفيد وفرجيل ونفس الوضع شهذته الأديرة لكلونية رغعم أن النظام الكلوني قد شجع فكرة نشخ الكتب داخل الأديرة فكما وجه الرهبان الكلونيون اهتمامهم نحو الدراسات اللاهوتية وأهملوا ما عداها مثل التاريخ والنحو وغيرها من الفنون٤٢.

---

[41] عاشور، ١٨

[42] عاشور، ٢٠

كما لا ننسى فضل الجماعات الرهبانية التي نشأت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر مثل الإخوان الفرنسيسكان والسشتريان والدومنكان وغيرها فقد قامت عل أكتاف هؤلاء نهضة القرن الثاني عشر أو نهضة العصور الوسطى حينما احتك الأذهان والعقول بين العنصر الرجعي من المفكرين الذي يعبر عن الفكرة الدينية القديمة المتزمتة وممثله القديس برنارد أوف كليرفو وبين العنصر المجدد من المنادين بتحرير الفكر ويتزعمه الفيلسوف بطرس أبيلارد زعيم الفكر الحر وتحرير الذهن من التقاليد العتيقة والداعي إلى فلسفة الشك والتشكك الشهيرة٤٣.

فالقديس برنارد من الشخصيات البارزة التي أخرجتها جماعة الإخوان السشتريان(١٠٩١-١١٥٣م) وهو أكبر ممثل للتفكير القديم ومن المتحمسين للنظام البندكتي وكان متصوفا منكرا لذاته أسس ديره المعروف كليرفو وكان يتمتع بنفوذ كبير ونشاط فائق، هذا القديس الذي دخل في صراع مع بطرس أبيلارد (١٠٧٩-١١٤٢) من أشهر رجال الجدل، هذا الأخير الذي دعا إلى استخدام العقل وتطبيقه على كل ما يقع تحت يد الإنسان قائلا إن الإنسان يجب أن لا يؤمن في شيئ قبل تفهمه وهكذا أصبح الفهم والإدراك لديه يسبقان الإيمان٤٤.

٢- التعليم في الكاتدرائيات:

يختلف هذا الصنف عن المدارس الديرية في طابعها الديني وأهدافها الكنسية، إلا أنها أسهمت مع الأديرة في نشر الحركة العلمية بأوربا في تلك الفترة حيث راحت الثقافة الفكرية تتحول من الأديرة إلى الكاتدرائيات فعلى الرغم من أن المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية سارت جنبا إلى جنب لفترة مع المدارس الديرية إلا أن المدارس الأسقفية احتلت تدريجيا محل المدارس الديرية. وكانت الكاتدرائيات وهي الكنائس الكبيرة يقيم بها الأساقفة، تحتل أهمية خاصة أن كل واحدة منها كانت

---

[43] جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات في العصور الوسطى، مكتبة المعارف

[44] يوسف، ٩٩

تتوسط منظقة يطلق عليها اسم أبريشية diocèse، فألحقت بكل كاتدرائية مدرسة أو معهد كان الأسقف يتولى رئاسته في أول الأمر.

ويؤكد بعض المؤرخين أن الكاتدرائيات اعتباراً من القرن الحادي عشر وما تلاه كانت ترعى عددا من المدارس بعضها كان يقدم تعليما على مستوى رفيع وفي جوانب متعددة من العلم وفي البداية كان الأسقف يتولى رئاسة المدرسة أو المعهد أو يشرف على التعليم في الأسقفية إذا تعددت مدارسها ومعاهدها، لكن تعدد مهام الأسقف وتعددها وتنوعها جعلته يعهد بهذه المهمة لأستاذ متخصص يعرف باسم Magester scholarium للإشراف على التلاميذ.

واستقلت المدارس الكاتدرائية بميزة هامة مقارنة بالمدارس الديرية إذ قلت الرقابة في المدارس الكاتدرائية فقد أتيح للمدارس الكاتدرائية نوع من الحرية في مقرراتها الدراسية كما وسعت من دائرة اهتماماتها فلم تقتصر على الشؤون الدينية فهتمت بالنواحي الخلقية ورعت العلوم والفنونه واهتمت بالفقراء والمرضى كما عنيت بالمكتبات فأضحت مراكز للفكر من ناحية والفنون الحرة من ناحية أخرى. ولذا قدر لهذا النوع من المدارس البقاء والاستمرار بل الازدهار في أوائل القرن الثاني عشر في الوقت الذي بدأت فيه المدارس الديرية تضمحل٤٥.

لقد تعددت مناهج الدراسة في المدارس الكاتدرائية إذ اهتم بعضها بالعناية الخاصة بدراسة النحو ودراسة نماذج من الشعر والنثر والمنطق أي دراسة المجموعة الثلاثية التي هي النحو والبيان والمنطق وبعضها اهتم كثيرا بدراسة الرباعية التي هي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى كما حظيت العلوم بقسط وافر من العناية وفي مقدمتها علوم اللاهوت والفلسفة والقانون بل جرت العادة لأن يكون لكل رئيس أساقفة كرسيان أحدهما للفلسفة والآخر للقانون الكنسي٤٦. وكانت

---

[45] عاشور،٢٣

[46] مرسي،١١٢

الكاتـــدرائيات تنفـــق مـــن أموالهـــا علـــى الطـــلاب الـــذين كـــانوا يؤهلـــون ليصبحوا رجال ديـــن ، أمـــا الطـــلاب الآخـــرين فكـــانوا يـــؤدون أجـــوراً قليلـــة ما عدا الفقراء منهم الذين كـــانوا يعفـــون مـــن ذلـــك. بـــل إن الكنيـــسة كانـــت تخصص رواتـــب كافيـــة للمعلمـــين الـــذين يتولـــون تعلـــيم مـــن يعـــدون لمهنـــة الكهانة وفقـــراء التلاميـــذ بالمجـــان فقـــد أصـــدر مجلـــس لاتـــران الثالـــث ١١٧٩م قرارا يقول: لكي لا يحرم الأطفـــال الفقـــراء مـــن فرصـــة القـــراءة والرقـــى يجـــب أن يخصص مرتب كاف لمـــدرس يعلـــم بالمجـــان مـــن يعـــدون لممارســـة الكهانـــة وللفقراء من التلاميـــذ. كمـــا أن معظـــم المـــتعلمين كـــانوا مـــن فئـــة الـــذكور، رغـــم أن المـــدارس الكاتدرائيـــة كانـــت تقبـــل البنـــات٤٧. وإن أهـــم وأشـــهر الكاتدرائيات التي برزت في الميـــدان الثقـــافي في القـــرن الثـــاني عـــشر هـــي تلـــك الواقعة في شمـــال فرنـــسا إذ ظهـــرت أهميـــة شـــارتر وأورليـــان في حركـــة إحيـــاء الدراســـات الكلاســـيكية وأهميـــة ريمـــس ولاؤون في الدراســـة المدرســـية وأهميـــة باريس التي انبعث منـــها أول شـــعاع للحركـــة الجامعيـــة في شمـــال أوربـــا كمـــا احتلـــت كاتدرائـــة كـــانتربوري مكانـــة كـــبيرة في أنجلتـــرا فقـــد قـــام رئـــيس أساقفتها ليوبالـــد(١١٣٨-١١٦١م) الـــذي تلقـــى تعليمـــه بمدرســـة دريـــر بـــك بقرنسا بجمع عدد كـــبير مـــن المفكـــرين حولـــه كمـــا اتخـــذ جنـــا سللـــسبوري مكـــربيرا لـــه وماســـتر فكـــاريوس مستـــشاراً قانونيـــا وهكـــذا ارتبطـــت هـــذه الكاتدرائية بعدد بـــارز مـــن الـــشعراء والأدبـــاء ورجـــال القـــانون وغيرهـــم مـــن المفكرين كما اشتهرت هذه الكاتدرائية بمكتبتها الضخمة٤٨.

أما في أسبانيا فاشـــتهرت مدرســـة طليطلـــة و لم تلبـــث، بعـــد أن اســـتولى عليهـــا المـــسيحيون ســـنة ١٠٨٥م،أن أصـــبحت المركـــز الطبيعـــي للاســـتفادة مـــن تراث الحضارة الإســـلامية ونقـــل هـــذا التـــراث إلى العـــالم الغـــربي ففـــي تلـــك المدينـــة عثـــر الأوربيـــون علـــى مكتبـــة عربيـــة ضـــخمة وعـــدد كـــبير مـــن

---

[47] ول ديورنت، قصة الحضارة،دار الجيل، بيروت ١٩٩٨، ج.١٧-١٨، ص ص. ٢٤-٢٥

[48] عاشور، ٢٢

المستعربين الـــذين يعرفـــون العربيـــة واللاتينيـــة وعـــن طريـــق هـــؤلاء ومـــساعدة بعض اليهود تجمت كثير من المؤلفات الثمينة إلى اللاتينية.

أما كاتدرائيات ألمانيـــا وإيطاليـــا فلـــم تقـــم في القـــرن الثـــاني عـــشر مثـــل هـــذا النـــشاط العلمـــي كمـــا في فرنـــسا وإســـبانيا ذلـــك أن الـــتراع بـــين البابويـــة والإمبراطورية كان له أثريه الـــسيء علـــى أحـــوال ألمانيـــا وإيطاليـــا.فقـــد شـــغل أساقفة ألمانيـــا وإيطاليـــا بالمـــسائل الـــسياسية ومناصـــرة البابويـــة أو الإمبراطوريـــة رغمذلك قام بعض الأســـاقفة بـــدور في النـــشاط العلمـــي مثـــل رومولـــد الثـــاني أسقف ســـالرفو وخريـــسولانوس رئـــيس أســـاقفة مـــيلان الـــذي اشـــتهر بأبحاثـــه اللاهوتية٤٩.

ثانياً. التعليـــــم في الجامعـــــــــــات:

لم تكن الجامعـــات وليـــدة يـــوم وليلـــة، ولم تنـــشأ متطـــورة طفـــرة واحـــدة في محيط العلم والتربيـــة والتعلـــيم. شـــأنها في ذلـــك شـــأن أي ظـــاهرة مـــن ظـــواهر التاريخ، إنما كانـــت نتيجـــة طبيعيـــة ومنطقيـــة لعـــدة عوامـــل وظـــروف ترجـــع إلى قرون طويلـــة ويمكـــن القـــول أن الجامعـــات مـــرت بعـــدة مراحـــل ريـــسية مميزة إلى أن وصلت إلىطور النضج والكمال.

تقع المرحلـــة الأولى مـــن تـــاريخ نـــشأة الجامعـــات في المـــدارس العامـــة الملحقـــة بالمؤســـسات الدينيـــة مـــن كنـــائس وأديـــرة وكاتـــدرائيات وأبريـــشيات فقـــد كانـــت هـــذه المـــدارس أو المؤســـسات هـــي المـــشعل الـــذي أضـــاء ظلمـــات القرون الوســـطى وإن ارتـــبط تأســـيس هـــذه المـــدارس بالـــدين وتعلـــم الطـــلاب العلوم اللاهوتية وكذا قواعـــد اللغـــة اللاتينيـــة وكـــذا علـــوم الكـــلام والمقـــصود بها المنطق والجدل حتى يتمكن الطـــلاب فيمـــا بعـــد مـــن إقنـــاع الخـــارجين عـــن الدين والرد علـــى الهراطقـــة والـــوثنيين إلى جانـــب قواعـــد الحـــساب والفلـــسفة لتحدي أيـــام الأعيـــاد والقديـــسين وبعـــض قواعـــد فـــن الموســـيقى لأداء تـــرانيم الكنيـــسة. ولقـــد لقيـــت هـــذه المـــدارس تـــشجيع كبـــار رجـــال الـــدين علـــى

---

[49] عاشور، ٢٤

رأسهم البابوات كما لقيت الكثير من العناية من الحكام والملوك منذ أيام الإمبراطور شارلمان٥٠.

أما في المرحلة الثانية فقد عرفت هذه المدراس الدينية ازديادا كبيرا في عدد روادها وازدهار بعضها ورجحت كفتها على غيرها من المدارس بسبب ظهور أساتذة مبرزين فيما بعد مما دفع الطلاب إلى الإقبال عليها من كل مكان في الغرب لتلقي العلوم على أساتذتها والإفادة منهم. وقد نتج عن ازدهار تلك المدارس نموها في المرحلة الثانية حيث تحولت إلى معاهد علمية كبيرة بفضل أساتذتها الذين كانوا يحاضرون بها. فكلما ارتفعت مكانة الأساتذة من الناحية العلمية كلما ارتفع شأن المعهد الدي يدرسون به ولكلما ازداد عدد الطلاب المقبلين عليه من كل صوب ونجد مثلا حيا لذلك في عهد الفيلسوف بطرس أبيلارد صاحب فلسفة الشك والتشكك، عندما أخذ يحاضر ويجادل في باريس وقيام القديس برنارد بتفنيد آرائه وتعاليمه ومقارعته الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، فأثار جدلاً علمياً رائعا وحركة فكرية نشطة وهرع إليهما آلاف الطلاب وهو أمر لم تألفه باريس من قبل وأخذ الإقبال يتزايد على المعاهد وبدأت الجامعات تظهر في النصف الثاني منه ظهورا جليا واضحاً.

وفي المرحلة الثالثة أين أخذ عدد الطلاب في تلك المعاهد في ازدياد مطرد حتى أنهم بلغوا الآلاف في باريس وحدها وإزاء ذلك وحتى يضمنوا لأنفسهم سبل الأمن والسلامة والاستقرار في هذه المراكز العلمية الجديدة والبعيدة عن أوطانهم قرروا أن ينشئوا فيما بينهم اتحاداً أو نقابة على نسق ما كان جاريا في العصور الوسطى بين طوائف الجار والعلمال والصناع. والهدف أن يكون هذا الاتحاد بمثابة شخصية معنوية تنظر في مشاكلهم وترعى شؤونهم ومصالحهم الخاصة والعامة. لقد ظل

---

[50] يوسف، ١٢٢-١٢٣

هـــذا النظـــام شـــائعاً فقـــد لقـــي الطـــلاب كـــثيرا مـــن المـــشاكل خـــصوصا في جانب وسائل وسبل الراحة مـــن حيـــث المـــأوى والمأكـــل وقـــد عولجـــت هـــذه المشكلة عندما افتتح بعـــض المدرســـين نـــزلاً للمـــأوى والمأكـــل لم يكـــن يـــسمح للإقامة به سوى للطلبـــة المغتـــربين كمـــا أقيمـــت نـــزل لـــصالح المفقـــراء كـــان ينفق عليها من الإعانات الخيرية خاصة.

وجاءت بعـــد ذلـــك المرحلـــة الرابعـــة والأخـــيرة في تكـــوين الجامعـــات وتتمثـــل في الاعتـــراف الرسمـــي بشخـــصيتها وكيانهـــا مـــن جانـــب الـــسلطات الدينيـــة والدنيوية علـــى الـــسواء، ولـــذلك أصـــبح للجامعـــات مـــن الحقـــوق والخاصـــة بها باعتبارها وحـــدة مـــستقلة لهـــا كيانهـــا ومقوماتهـــا مـــا يـــضمن لهـــا ســـطلة تنظيم أمور العلـــم والتعلـــيم فيهـــا ومـــنح الـــدرجات العلميـــة وتحديـــد المنـــاهج والمقـــررات ومـــا إلى ذلـــك ممـــا يـــضمن لخريجيهـــا حـــق مزاولـــة مهنـــة التدريس٥١

ثالثاً. نماذج لبعض الجامعات الأوربية في العصور الوسطى

جامعة بولونا بباريس

تعتبر جامعة بولونـــا أهـــم جامعـــات البحـــر الأبـــيض المتوســـط وأضـــخمها مـــن حيث النـــشأة والنمـــو والمعـــوف أن هـــذه الجامعـــة جـــاءت وليـــدة الدراســـات القانونية في القرن الثـــاني عـــشر علـــى أيـــام أرنويـــوس وبفـــضل شـــهرة بولونـــا قصدها الطـــلاب مـــن مختلـــف أنحـــاء العـــالم البعيـــدة. هـــذه الجمـــوع المغتربـــة والفقيرة من الطـــلاب كـــانوا بمثابـــة النـــواة الأولى الـــتي نـــشأت منـــها الجامعـــة فقد نظـــم هـــؤلاء الطلبـــة أنفـــسهم في نقابـــات تـــساعدهم في شـــؤون المأكـــل والمشرب والمأوى والكتب بـــل ســـرعان مـــا أصـــبحت تـــتحكم حـــتى في هؤئـــة التدريس لأن دخل الأساتذة كـــان متوقفـــاً علـــى مقـــدار مـــا يحـــصل عليـــه مـــن طلبته مما جعل رئيس هذه النقابـــة الـــرئيس الفعلـــي للجامعـــة وســـران مـــا أنـــشأ كذلك المدرســـون نقابـــة خاصـــة بهـــم واضـــعين منـــها شـــروطا لمـــنح إجـــازة

---

[51] يوسف، ١٢٤-١٢٥

التـــدريس والـــسماح أي عـــضو جديـــد بالـــدخول في النقابـــة ومـــن هـــذين النـــوعين مـــن النقابـــة تمـــت الـــنظم الجامعيـــة وتطـــورت في العـــصور الوسطى٥٢. ولقد طغت الـروح العلمانيـة علـى جامعـة بولونـا بعكـس مـا جـرى في غيرهـا مـن الجامعـات فلـم يكـن في بولونـا كليـة دينيـة علـى الإطـلاق قبـل سـنة ١٣٦٤م، بـل حـل القـانون الكنـسي بها محـل علـم اللاهوت.

لقـد انتـشرت الجامعـات في جميـع أنحـاء إيطاليـا في القـرنين الثـاني عـشر والثالث عـشر فقـد نـشأت بعـضها مـن جامعـة بولونـا بهجـرة الأسـاتذة والطلاب مـن هـذه الجامعـة ومـن ذلـك أن بليـوس غـادر في عـام ١١٨٢م. ورغـم مـرور الـزمن وظهـور اختـصاصات أخـرى مثـل الفنـون والطـب واللاهوت فإن بولونا ظلـت جامعـة رفيعـة القـدر بالنـسبة للقـانون المـدني. وحيث كانت الكنيسة تهـيمن علـى حركـة التعلـيم الجـامعي في أوربـا خـلال العصور الوسطى ففـي بولونـا تمـسكت الكنيـسة بـضرورة موافقـة الأسـقف علـى المتقـدمين للدراسـات العليـا في القـانون. وفي جامعـة بـاريس كـان تدخلـها أشـد عمقـا في نظـام الهيئـة التدريـسية فقـد ظهـر التوحيـد بـين وظـيفتي رئـيس الجامعـة ورئـيس أسـاقفة المدينـة وتعـددت سـلطات أمـين الكاتدرارائيـة في بـاريس حـد الموافقـة علـى اختيـار المرشـحين لوظـائف التدريس بل جرى وضع شـروط لا بـد مـن الالتـزام بها فـلا أحـد يحاضـر في الففنون في بـاريس حـتى يـصل إلى سـن الحاديـة والعـشرين ويكـون قـد تعلم وسمع المحاضـرات علـى الأقـل لمـدة سـت سـنوات قبـل أن يحاضـر إلى غير ذلك من تدخلات الكنيسة.

ولا يمكن أن نغـادر إيطاليـا دون التعـرف علـى جامعـة سـالرنو وهـي أقـدم جامعة من بولونـا فقـد حـازت علـى شـهرة كـبيرة في دراسـة الطـب منـذ القرن التاسع مـيلادي وكانـت سـالرنو قـد خـضعت لليونـان لفتـرة طويلـة

---

[52] عاشور، ٢١٠-٢١٣

لهـــذا اســـتفادت مـــن المخطوطـــات اليونانيـــة الـــتي ظلـــت محفوظـــة خاصـــة في مكتبات الأديرة البندكتيـــة.ولقـــد تطـــورت هـــذه المدرســـة الطبيـــة منـــذ أواخـــر القـــرن الثـــاني عـــشر إلى جامعـــة لتـــدريب الأطبـــاء وتخـــريج الجـــراحين المتخصـــصين وقـــام بالتـــدريس فيهـــا قـــسطنطين الإفريقـــي الـــذي ولـــد في قرطاجنة وكان يعـــرف العربيـــة وحمـــل معـــه إليهـــا كتـــب العـــرب في الطـــب ومعرفتهم الطبية وقضى وقتا في ترجمتها إلى اللاتينية٥٣.

جامعة باريس :

من المعروف أن جامعـــة بـــاريس نـــشأت مـــن مدرســـة الكاتدرائيـــة ولمـــا كـــان التطور الجامعي جـــاء تـــدريجيا وبطيئـــا فلأننـــا لا نـــستطيع تحديـــد تـــاريخ معـــين نقـــول أن مدرســـة بـــاريس خلعـــت فيـــه ن نفـــسها صـــفتها الكاتدرائيـــة واخذت صفتها الجامعيـــة الخالـــصة ولكـــن مـــا يمكـــن قولـــه أن هيكـــل جامعـــة باريس تكون في أواخر القرن الثـــاني عـــشر عنـــدما أنـــشأ هيئـــة التـــدريس نقابـــة خاصة بهم وأخذ نفـــوذه في الازديـــاد حـــتى صـــات هـــي المهيمنـــة فعـــلا علـــى شؤون الجامعة.

ولقد مـــرت هـــذه النقابـــة أو رابطـــة الأســـاتذة الـــتي كانـــت أســـاس جامعـــة بـــاريس بعـــدة خطـــوات إلى لأأن أصـــبحت تحـــادا معترفـــا بـــه مـــن كـــل السلطات ففي ســـنة ١٢١٠ أصـــدر البابـــا أنوســـنت الثالـــث مرســـوما اعتـــرف فيـــه بيقابـــة المعلمـــين ببـــاريس واعتمـــد قوانينـــها المدونـــة وفي ســـنة ١٢٣١ أعطى لابابـــا جريجـــوري التاســـع امتيـــازات خاصـــة لأعـــضاء جامعـــة بـــاريس كفلت لهم كفالة حقـــوقهم. وقبـــل لأن ينفـــضي القـــرن الثالـــث عـــشر انقـــسم مدرســـو جامعـــة بـــاريس إلى أربـــع ســـلطات أو كليـــات كمـــا نـــسميها الآن: كليـــة اللاهـــوت، القـــانون الكنـــسي، الطـــب، القنـــون. و لم يكـــن القـــانون المدني بعد عام ١٢١٣ مكـــان في جامعـــة بـــاريس وكـــان المنـــهج يبـــدأ بـــالفنون السبعة ثم يرتقي إلى الفلـــسفة وينتـــهي بعلـــوم الـــين وكـــان يحكـــم كـــل جماعـــة

---

[53] يوسف، ٢٤٥

من الطلبة وكليل أو مدير وكــل كليــة عميــد. وكــان لطــلاب الكيــة الفنــون مير يرأسهم هــذا الأخــير الــذي أصــبح قبــل عــام ١٢٥٥ كــديرت للجامعــة كلها٥٤. ولقد كانــت طريقــة التــدريس هــي المحاضــرات والــسبب في ذلــك أنه لم يكن في مقدور كــل تلميــذ شــراء الكتــب الــتي يجــب عليــه دراســتها أو يحصل على نــشخ منــها مــن دور الكتــب وكــانوا يجلــسون علــى الطــوار أو علــى الأرض وكانــت لــوئح الجامعــة تحــرم علــى المــدرس أن يقــأ محاضراته على الطلاب بل عليــه "أن يــدرس ارتجاليــا بــل كــان يحــم عليــه أن يقطــع الكــلام وكــان الطــلاب القــدامى يحــذرون الطلبــة الجــدد مــن أداء الأجر للأستاذ حتى يــستمعوا إلى محاضــراته وكــان التعلــيم ينــتعش مــن حــين إلى آخر بمناقــشات عامــة تجــري بــين المدرســين والطلبــة المتقــدمين والزائــرين المتمــازين. وكانــت هــذه المناقــشات تجــري في شــكل مقــرر محــدد يــسمى النقاش المدرسي وهو رسمــي إلى جانــب وجــود مناقــشات أخــرى غــير رسميــة يسموها أي شئ نحب quodiberta.

وكــان معظــم الطــلاب في جامعــة بــاريس يعيــشون في مــضائف تؤجرهــا جماعات منظمــة مــن الطــلاب كمــا كانــت بعــضها تــأوي فقــراء الطــلاب نظــير أجــر اسمــي وبلــول عــام ١٢٣١ أنــشأ طوائــف الرهبــان والكنــائس المحــسنون مــضايف ومــساكن أوســع للطــلاب وحــسبت عليهــا الحبــوس وخصت بأقساط ســنوية خفــضت بعــض نفقــات العــيش علــى الطــلاب وفي عــام ١٢٥٧ وهــب روبــرت دي ســوربون قــس القــديس لــويس بيــت السوربون المال اللازم لإيواء ستة عــشر طالبــا مــن طلبــة علــوم الــدين، ومــن هذا البيت نشأت كلية السوربون٥٥.

جامعة أكسفورد بأنجلترا:

لقد أصحت مردســة أكــسفورد بــأنجلترا في القنــر الثــاني شــعر مدرســة عامــة أي جامعــة ففــي عــام ١٢٠٩ كــان في أكــسفورد ثلاثــة آلاف طالــب

---

[54] ول ديورانت، قصة الحضارة، ج.١٧-١٨، ص.٣٧

[55] نفسه، ٣٩-٤٠

ومدرس وكان فيها ما كــان في جامعــة بــاريس أربــع كليــات: كليــة الفنــون وكلية اللاهــوت وكليــة الطــب وأخــيرا كليــة قــانون الكنيــسة أمــا القــانون المدني فقد أغفلته الجامة بل استقر في دور المحاكم في لندن.

كــان بجامعــة أكــسفورد قاعــات ممحاضــرات وكــان المدرســون ســيكنون مع الطلاب ولم ينقــصض القــرن الثالــث عــشر حــتى كانــت القاعــات هــي الأقسام المادية والتعلمية الــتي تكونــت منــها الجامعــة ومــع مــرور الوقــت اغتنــت الكليــات الأنجليزيــة بفــضل الهبــات والــنح الدراســية المقدمــة مــن ظــرف المولــك وغيرهمــن ففــي عــام ١٢٨٠ أنــشئت قاعــة الجامعــة بهيبــة ن وليام الدرهامي كبير أساقفة روان rouen.

لقد كــان الأســاتذة يختــارون واحــدا مــن بينــهم ليكــون الزميــل الأكــبر أو الرئيس وهــو الاســم الــذي يعــرف بــه عمــداء الكليــات الأنجليزيــة في هــذه الأيام ولم يحل عــام ١٣٦٠٠ حــتى كانــت أكــسفورد مركــزا لنــشاط الــذهني والنفــوذ العــام لا تفوقهــا في ذلــك ســوى بــاريس وكــان أشــهر حرجيهــا كلهم هو روجر بيكــون الــذي التــف حولــه العديــد مــن الرهبــان وكونــوا جماعة ممتازة من رجــال العلــم وكــان زعــيمهم روبــرت جروســكيتس الــذي درس القــانون والطــب والعلــوم الطبيعيــة ونــال درجتــه في علــوم الــدين في ١١٨٩ وأصــبح أســقف كنكــولن ١٢٣٥ هــذا الأخــير الــذي لخــص علــوم زمانــه في موســوعة للميــة وكــان أول مــن أنــشأ أول صــندوق يقــرض الطلاب المال بغــير فائــدة. يمكــن القــول أنــه مــن الــذين أوجــدوا بأعمــالهم الجلية هيبة أكسفورد العالية ومكانتها العطيمة في عالم العلم والعقل.

إن جامعــة أكــسفورد فرفــت هجــرة العديــد مــن الطلبــة بــسبب أن أحــد الطلبة قتل امرأة فهــاجم أهــل البلــدة مــساكن الطبــة وقتلــوا اثــنين أو ثلاثــة ليتوجه الطلبة إلى جامعة كمبردج٥٦.

---

[56] عاشور، ٢١٨-٢١٩

ويتضح من خلال هذه النماذج لجامعات العصور الوسطى أن الجامعة في أدوارها الأولى لم تحتوي كل أقسام التخصص المعروفة من القانون والطب والاهوت والفنون المختلفة فقد جازت بعض الجامعات على شهرة في فروع معينة من الدراسة فحسب ما توفر لها من الأساتذة المتخصصين فتخصصت جامعة مونبلييه في فرنسا وجامعة سالرنو في إيطاليا بدراسة الطب واشتهرت بولونا بدراسة القانون وهذا لم يمنع بعض الجامعات من وجود أقسام أخرى لدراسة المواد العلمية المختلفة ففي بولونا ضمت قسما لدرساة الفنون الحرة واخر لدراسة الطب. وما لبثت جامعات العصور الوسطى أن انتظمت أقسامها الكبيةر وعرفت باسم الكليات فتكونت كل جامعة من أربع كليات: الأداب واللاهوت القانون والطب وانقسمت الدراسة في كلية الآداب إلى مجموعتين الأولى هي المجموعة الثلاثية واحتوت على قواعد اللغة اللاتينية والمنطق والبلاغة والثانية هي المجموعة الرباعية واختصت بالموسيقى والحساب والهندجسة الفلك أي أن درساة الآداب اهتمت بتقديم برنامج أساسي لتعليم الفنونالسبعة العقلية كما زاد الاهتمام بعض الجامعات بالعلوم الطبيعية ولاسيما علم الحيوان. كما لم يكن للجامعات في الكثير من الأحيان مبان مستقلة فكانت المحاضرات تلقى أحيانا في غرف ملحقة بالكاتدرائية أو في أروقتها وفي القرن الثالث عشر كان بعض الأساتذة يستأجرون حجرات خاصة بطلاهم أي أن الجامعة لم تكمن لها مبان خاصة و لم تكن حرما جامعيا٥٧.

رابعاً. الامتحانات وحياة الطلاب:

يبدو أنه لم يكن تعقد امتحانات في أثناء دراسة المناهج، لوكن كان هناك إلقاء ونقاش وكان يمكن إقصاء العاجزين في خلال السنة ثم نشأ حولى متصف القرن الثالث عشر عادة إلزام الطالب بعد أن يمضي خمس

[57] مرسي، ١٣٤-١٣٥

سنين مقيما في الجامعـــة للدراســـة أن يـــؤدي امتحانـــا أوليـــا أمـــا لجنـــة وكـــان هـــذا يتـــضمن أولا اختبـــارا خاصـــا منفـــرادا يـــشمل إجابـــات عـــن الإســـئلة وتضمن ثانيا مناقشة علنيـــة يـــدافع الطالـــب فيهـــا عـــن موضـــوع أو موضـــوعين ويفند اعتراض المعترضين ثم يختم النقاش بتلخيص النتائج٥٨.

كان الـــذين يجتـــازون هـــذه الاختبـــارات الأوليـــة بنجـــاح يـــسمون الـــبكلاري baccalari أي الأتبـــاع وكـــان يـــسمح لهـــم أن يخـــدموا أســـتاذا بوصـــفهم مدرسين مـــساعدين أو محاضـــرين . وكـــان بوســـع التـــابع أن يواصـــل درســـاته وهـــو مقـــيم ثـــلاث ســـنين أخـــرى فـــأذا رأى أســـتاذه خلقـــا بالتقـــدم إلى الامتحان قدم إلى ممتحنين يعينـــهم رئـــيس الجامعـــة وكـــان ينتظـــر مـــن الأســـتاذ أن لا يقدم طالبـــا يتـــضح أنـــه غـــير مـــستعد للامتحـــان إلا إذا كـــان مـــن ذوي المكانة البارزة. وكان الامتحـــان يعـــد لكـــي يناســـب مقـــدرة الطالـــب وكانـــت الـــصفات الخليفيـــة مـــن الموضـــوعات الـــتي سيـــشملها الامتحـــان لـــذلك فـــإن الجرائم الخلقيـــة الـــتي يرتكبـــها الطـــلاب قـــد تحـــول بينـــهم وبـــين الـــدرجات العالية. فإذا اجتـــاز الطالـــب هـــذا الامتحـــان العلـــني والأخـــير ينجـــاح أصـــبح أستاذا أو دكتورا وعبلـــه في هـــذه الحالـــة أن يـــدرس وهـــم يحمـــل علـــى رأســـه قلنسوة ويقبلـــه أســـتاذه ويباركـــه ثم يجلـــسونه علـــى كرســـي الأســـتاذية فيلقـــي محاضـــرة افتتاحيـــة ويعـــد هـــذا بمثابـــة بدايـــة كأســـتاذ محاضـــر وكـــان مـــن مـــستلزمات هـــذا التخـــرج أن يـــدعو جميـــع الأســـاتذة أو أكثـــرهم إلى وليمـــة يقدم لهم الهدايا وبهذا أيضا ينظم إلى نقابة الأساتذة.

ولقـــد كانـــت هنـــاك ثـــلاث درجـــات علميـــة: الأولى منـــها هـــي درجـــة الباكالريوس ويطلـــب مـــن المترشـــح لهـــا أن يـــدرس كتـــابين في النحـــو وخمـــسة كتب في المنطـــق فـــإذا نجـــح فيهـــا منحتـــه الجامعـــة درجـــة bachelor of arts أما الدرجة الثانية فهي درجـــة الليـــسانس وتحـــتم علـــى طالبـــها أن يـــدرس نحـــو

---

58 نفسه، ص.٥٥

سنتين في القراءة والاطلاع وشرخ النصوص يؤدي امتحانا أمام لجنة خاصة تجيز له حملها إذا وقف في الامتحان وتجيز له ممارسة مهنة التدريس. أما الدرجة الثالثة فهي درجة الدكتوراه أو الأستاذية وتحتم على طالبها قضاء نحو خمس إلى ست سنوات في دراسة الآداب أو القانون أو اللاهوت وهذه الشهادة تسمح لحاملها أن يصبح أستاذا بإحدى الجامعات٥٩.

خامساً. حياة الطلاب:

لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة فقد يكون في أي سن وقد يكون قسا أو راهبا أو رئيس دير أو تاجرا وقد يكون متزوجا أو غلاما في الثالثة عشرة من عمره كما لم يكن الذي يرغب في دخول الجامعة اجتياز امتحان معين بل كان يشترط فيه فقط أن عارفا باللغة اللاتينية وأن يكون قادرا على أداء أجر زهيد كل مدرس يدرس منهجه عليه فإذا كان الطالب فقيرا فإنه قد يستفيد بمنحة دراسية أو معونة تسلمها إليه قريته أو كنيسته أو أحد أصدقائه أو أسقفه. وكان الطالب الذاهب إلى الجامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالمجان ويجد الطعام والمأوى في الأديرة التي في طريقه. ولمن يفرض على الطلاب ملابس جامعية خاصة بل كان عليه أن يشد ثوبه الخارجي بالأزرار وألا يمشي حافي القدمين إلا إذا كان جلبابه يصل إلى عقبيه. وكان الأساتذة يتميزون بلبس القبعة وهي حرملة حمراء أرجوانية ذات حاشية من جلد السنجاب كما كانوا في بعض الأحيان يعطون رؤوسهم بقلنسوة مربعة في أعلاها خصلة. كان الطلاب يسلون أنفسهم بالكلاب والصقور والموسيقى والرقص والقصص وشرب الخمر والجعة في الأعياد والاحتفالات. وكان الطالب في جامعة باريس في مترلة رجل الدين يتمتع بحصانته فكان يعفى من الخدمة العسكرية ومن الضرائب التي تفرضها الدولة على غيره ولا

---

[59] مرسي، ص.١٣٨

يحاكم أمام المحاكم غير الدينية وكان ينتظر منه أن يدخل لسلك رجال الدين وكان في وسعه إذا تزوج أن يظل طالبا ولكنه في هذه الحال يفقد امتيازات رجال الدين ولا يستطيع الحصول على درجة علمي.

سيرة الباحث الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني- بقلم العلامة:

ا.د.إبراهيم خليل العلاف

أستاذ التاريخ الحديث –جامعة الموصل

صديق عزيز ، أتابع منذ فترة طويلة ، نشاطاته العلمية، ولي معه علاقة تبادل علمي .... هو جمال الدين بن فالح بن نصيف بن جاسم بن أحمد الحجية بن عبد الكريم بن عبد الرحيم بن خميس بن ولي الدين محمد بن عثمان بن يحيى بن حسام الدين بن نور الدين بن ولي الدين بن زين الدين الكبير بن شمس الدين بن شرف الدين بن محمد الهتاك بن عبدالعزيز بن الباز الاشهب الشيخ عبدالقادر الكيلاني بن ابي صالح موسى بن عبدالله الجيلي بن يحيى الزاهد بن محمد المدني بن داود امير مكة بن موسى الثاني بن عبدالله الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبى بن اسدالله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم اجمعين،من الأسرة الكيلانية، ذرية الشيخ عبد القادر الكيلاني الحسني العلوي(قدس الله سره العزيز).

من مواليد ١٩٧٢، ومنذ طفولته أولع بحب التاريخ ،و قراءة الكتب المتنوعة ،تأثر بوالده الأستاذ فالح الحجية الكيلاني –الأديب والشاعر،وأخذ عنه حب الأدب والمعرفة وتذوق الشعر،وبحكم نشأته في الخالص وعلاقة القرابة التي تربطه بالعلامة سالم عبود الالوسي ،تعرف بالعلامة مصطفى جواد وتراثه ،واهتم منذ بواكير حياته العلمية بالتراث القادري والذي بات تخصصه الدقيق،ويعد نفسه من تلاميذ الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ومدرسته التاريخية،مارس التدريس في التعليم الابتدائي

والمتوسط والثانوي ، كما حاضر في جامعة بغداد والجامعة المستنصرية واتحاد المؤرخين العرب وجامعات القادسية والبصرة وواسط .

حصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية -ابن رشد -جامعة بغداد . كما نال شهادة (دبلوم)في اللغة الانكليزية من معهد المعلمين.

لم يقف عند هذا الحد ، بل غذ السير ، وأكمل دراسته وحصل على شهادة (دكتوراه) فلسفة في التاريخ الإسلامي من جامعة سانت كلمنتس العالمية. ولحبه التاريخ والدراسات التاريخية انتمى إلى" معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا التابع لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد " ، وحصل على شهادة ماجستير آداب في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية . حصل على لقب "باحث علمي" من مركز دراسات التاريخ والوثائق والمخطوطات سنة ١٩٩٨ .

والدكتور الكيلاني عضو اتحاد المؤرخين العرب ١٩٩٦وعضو الهيئة العربية لكتابة تاريخ الانساب١٩٩٨ وعضو جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق١٩٩٥ وعضو (شرف) لجنة الدراسات القادرية المغرب١٩٩٧. مشرف مركز دراسات الإمام عبد القادر الجيلاني المتخصص بالتراث والتاريخ والأنساب القادرية ٢٠١١ .

كرم بالعديد من الشهادات التقديرية من المجمع العلمي العراقي١٩٩٦ والهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب ٢٠٠٠ ،والهيئة العامة للاثار١٩٩٧ وجامعة بغداد١٩٩٩ وغيرها.

اهتم بتاريخ الأنساب وشغل نفسه بهذا اللون المهم من الدراسات التي تحتاج إلى معرفة بأمور كثيرة .وقد أجيز في مجال دراسة وتدقيق الأنساب من ثلة من الأساتذة العراقيين المعروفين أمثال الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف والأستاذ سالم عبود الالوسي والأستاذ اللواء احمد خضر العباسي والأستاذ الشيخ خليل الدليمي والأستاذ جمال الراوي .ومنذئذ قام الدكتور الكيلاني بدراسة وتدقيق العشرات من شجرات النسب ومن كافة أنحاء العراق وبموجب كتب رسمية من الهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب وغيرها ، ويفخر بأنه حضر عدة جلسات للعلماء الأعلام كل من الشيخ العلامة عبد الكريم محمد المدرس-مفتي الديار العراقية-والعلامة الدكتور حسين علي محفوظ والعلامة الدكتور علي الوردي و -العلامة الدكتور حسين أمين

كما أن لديه العديد من البحوث والدراسات والكتب .من كتبه المنشورة :كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني -تفسير جديد مراجعة الأستاذ الشاعر فالح الحجية الكيلاني ،مكتبة المصطفى ، القاهرة ،٢٠٠٩.وكتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة تقديم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ،مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي – بغداد ٢٠١١. وهو بالاصل رسالة باشراف الدكتورة لقاء الطائي والدكتور رؤوف وكتاب " بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي ، دراسة وتحقيق " ،تقديم الدكتور حسين أمين شيخ المؤرخين –نشر على نفقة السيد احمد الكيلاني ،الجزائر٢٠١١ .وكتاب " أصول التاريخ الإسلامي " ،مراجعة الدكتور حسين علي محفوظ (مخطوط) ١٩٩٩.وكتاب " تنقيحات دراسة تحليلية لنسب الإمام عبدالقادر الجيلاني" ، مراجعة الدكتور عبد القادر المعاضيدي (نشر محدود) منه نسخة محفوظة في المكتبة القادرية١٩٩٦. وكتاب" دراسات في التاريخ الأوربي" ، تقديم الدكتور كمال مظهر احمد (معد للنشر).

ومن بحوثه ودراساته :عرض كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني - تفسير جديد في مجلة فكر حر ٢٠٠٩.وعرض مخطوطة مهجة البهجة ومحجة اللهجة (كتاب) منشورة في جريدة الصباح ٢٠٠٥.ومقالة مصطفى جواد ومخطوطة نادرة عن الكيلاني جريدة الصباح ٢٠٠٦. ومقالة رشيد عالي الكيلاني ابن ديالى المشورة في جريدة العراق ٢٠٠٢.ومقالة المقدادية أصل التسمية المنشورة في جريدة العراق ٢٠٠٢.ومقالة" الشرق الأوسط واصل التسمية" المنشورة في مجلة كلية الاداب جامعة عين شمس ٢٠٠٩.ومقالة عن " براغماتية السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب "،مجلة فكر حر٢٠٠٩.ومقالة عن "الشيخ عبدالقادر الكيلاني: جيلان العراق لا جيلان طبرستان،مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ٢٠٠٩.وتفسير الجيلاني – دراسة في نسبة التفسير للمؤلف، مجلة رؤى ٢٠١٠. و"المؤرخ هشام جعيط –دراسة في رؤيته للسيرة النبوية " ، مجلة رؤى ٢٠١٠.

هذا فضلا عن عشرات المقالات المنشورة على شبكة الانترنت وضمن مواقع كثيرة ومن الموضوعات

التي كتبها موضوعات ،عن عصر الرسالة وعصور الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين والعصر الحديث والمعاصر والشخصيات العربية والإسلامية وبعض الشخصيات الغربية ،مثل مقالات تدور حول الشيخ عبد القادر الجيلاني وذريته في العالم ،وأهمية ثورة الحسين في التاريخ العربي الإسلامي، و إبان بن عثمان المؤرخ المبكر،والإمام الغزالي، والإمام الرفاعي، والإمام أبو مدين ،والإمام البخاري ،والشيخ ابن تيمية وقوميته، والشريف البعقوبي،الامين والمأمون والميكافلية ،والطريقة القادرية المبكرة ،و معنى الباز الاشهب،و التراث الصوفي – دراسة أولية والإمام أبو إدريس البعقوبي، والمغول، وجنكيز خان، وهولاكو خان، وتيمورلنك، والدولة الفاطمية وخلفاءها، وبغداد، وسمرقند، وكابول، ودلهي، والمقدادية أصل التسمية، والناصرية العراقية، والصويرة العراقية، والعزيزية العراقية، وال بابان، وال السعدون، ومحمد الفاتح ،وسليمان القانوني ،ومراد الرابع، وعبد الحميد الثاني، والشرق الأوسط ،والمكنا كارتا، وعبد القادر الجزائري، وجمال الدين الافغاني ،وعبد الكريم قاسم ،والحبوبي الشاعر والإمام، والسيد محمد باقر الصدر، والمؤرخ الدروبي وجهوده في تدوين تاريخ الأسرة القادرية في العهد العثماني، والرينسانس ،ومترنيخ، وبسمارك، وهتلر، وميكافللي والميكافلية، وونستون تشرشل، وجان جاك روسو ،والثورة الفرنسية، ولويس الرابع عشر ،ولويس السادس عشر، وماري انطوانيت ،ونابليون الأول ،ونابليون الثالث، وقراءة في كتاب-لينين-خطوة إلى الإمام خطوتان إلى الوراء، وتلخيص كتاب قصة الفلسفة للمؤرخ ويل ديورانت، وتاج محل ،والأزهر، والقرويين، وبدر شاكر السياب، و" الصراع السياسي والديني في اليمن قبل الإسلام -نجران نموذجا " .

درس التاريخ على أيدي العديد من أساتذة التاريخ في العراق منهم الأساتذة الدكاترة عماد عبد السلام رؤوف وكمال مظهر احمد وفاروق عمر ،وعبدالرزاق الانباري وعبد القادر المعاضيدي وخاشع المعاضيدي وعبد القادر الشيخلي وجعفر عباس حميدي ويقظان سعدون العامر وحمدان الكبيسي وقحطان عبد الستار الحديثي وهاشم يحيى الملاح وعبد الامير العكام وصادق ياسين الحلو ومفيد كاصد الزيدي ومحمد احمد الشحاذ وعبد الامير دكسن وعبد الجبار ناجي وفاروق عباس وهيب وخضير الجميلي وطارق نافع الحمداني ومحمد جاسم المشهداني ومحمد ياقر الحسيني ومزاحم علي عشيش البعاج وناهض عبدالرزاق القيسي ومحي هلال السرحان.

من آراءه" أن التاريخ لايعرف اليوم والأمس والغد وإنما هو نهر الحياة يمضي الى الاجل المضروب الذي قدره علام الغيوب، فالتاريخ كله تاريخ معاصر ،نعم له تقسيمات علمية، ولكنه يعيش معنا ويهمنا وعلينا أن نستفاد منه في حياتنا كلها ويستند في هذا الرأي على أن استقراء التاريخ خير من التجارب ،وان اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو بداية عصر آخر ،يبدو ، امرا بعيدا عن الحقيقة والواقع لان التطور التاريخي يمتاز دائما بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها ببعض ، وان وقائع التاريخ الكبرى عائمات جليد طرفها ظاهر فوق الماء ، وكتلتها الرئيسية تحت سطحه ومن يريد استكشافها عليه أن يغوص في الأعماق،والفرق بيننا وبين الغرب اننا نعيش في التاريخ فقط وهم يفهمونه ويستغلونه لتحقيق مصالحهم،و التاريخ هو طريق الإنسانية الى الحضارة، لأنه ضوء ينير الماضي لرؤية الحاضر و المستقبل ، فجذور أنظمتنا السياسية ،والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية ،تمتد عميقا في تربة الأجيال الماضية".

ويعتقد جازما "أن الدنيا سراب ووهم وخداع وصنم كبير ، بحلوها ومرها وبعقدها ومعقديها فهي تراب ،ورغم بريق الحياة اللاهثة وراء أمل كاذب ،وسيطرة مجتمع ثيوقراطي فأنه فرز بيروقراطية مسيطرة،بلا رحمة على مجتمعاتنا الشرق أوسطية في زمن تعولمت فيه الدنيا وأصبحت قرية صغيرة ،وأصبحت للإنسان(العادي) مكانة مكينة في إدارة مجتمعاته لا في إدارة بيته فحسب".

وهو يرى "أن الثقافة أو ما يصطلح عليه بالانتلجيستا والوجود او الانطولوجيا ،والأدب والفن والإبداع والمعرفة ، مصطلحات نقدسها ظاهرا ،ولانهتم بها باطنا ، ويتساءل أين ارتعاشات بدر شاكر السياب وحبيبته اقبال ؟ وأين الجواهري ودجلته؟ واين طه حسين وايامه ؟ واين العقاد ونقده؟ واين شعرائنا العظام من امروء القيس وقفا نبك من ذكرى حبيبته ؟اين المتنبي وانفته ؟ اين ابن رشد وفلسفته؟ أين ابن حزم وطوق حمامته اين عبدالقادر وتصوفه وأبو حيان التوحيدي وانسنته وابو العلاء وأحزانه و أين شوقي وحافظ والرصافي والزهاوي والحبوبي ،نسينا كل ارثنا العظيم ورجعنا نقلب خرافات عجائز ماتت ورجعنا" لعصر سي السيد" كما حكاه محفوظ ،لنظر للغرب وهو يقدس افلاطون المثالي وارسطو المضحي وسقراط العقلاني،وفرانسيس بيكون المجدد وجان جاك روسو الرومانسي وعما نوئيل كنت سيد الفكر الحديث ونتيشة وزرادشت الجديد،وميكافللي وسياسته التي لاترحم ،وجون ستيوارت مل وبراكماتيته ،وجان بول سارتر ووجوديته ، وتراهم يهيمون بتولستوي والحرب والسلام ودستوفسكي والجريمة والعقاب وانطون تيشخوف ومسرحلته وكوكل ومعطفه العظيم ، وفكتور هيجو والبؤساء ،وديكنز

وقصته بين المدينتين وهمنجواي ووداعا للسلاح وليس آخرهم ماركيز صاحب مائة عام من العزلة والحب في زمن الكوليرا ،ود جي جي موبسان وكافكا .
ويتمنى علينا - في يوم من الأيام- أن نكرم اديبا او نحتفي بعالما بحياته لابعد مماته ....ونكرمه لذاته لا لايديولوجيا تبناها ووافقت هوى انسان أو جماعة،في مجتمع (الميدل ايست) الذي حرص نابليون ومترنيخ وبسمارك وتشرشل وهتلر وادرو ولسون ،ان يبقى بعيدا عنهم ،وأراده برنارد لويس وجيب وبراون وبارتولد وكراتشوفسكي وجولديزيهر وغيرهم من عمالقة الاستشراق ان يبقى تابعا وضيعا لهم. وهو يعد قراءه ان يعمل شيئا من اجل إحياء تراثنا الإنساني وابرز صفة فيه هي تقبل الاخر مهما كان رأيه وشكله وانتماءه" .ومن الآراء التي يعتز بالتمثل بها قول الشيخ عبد القادر الكيلاني : ((اعمل الخير لمن يستحق ولمن لايستحق والأجر على الله)) . وكذلك بقوله : ((اود لو ان الدنيا بيدي فاطعمها للجياع .((
المصدر موقع الدكتور ابراهيم العلاف*.